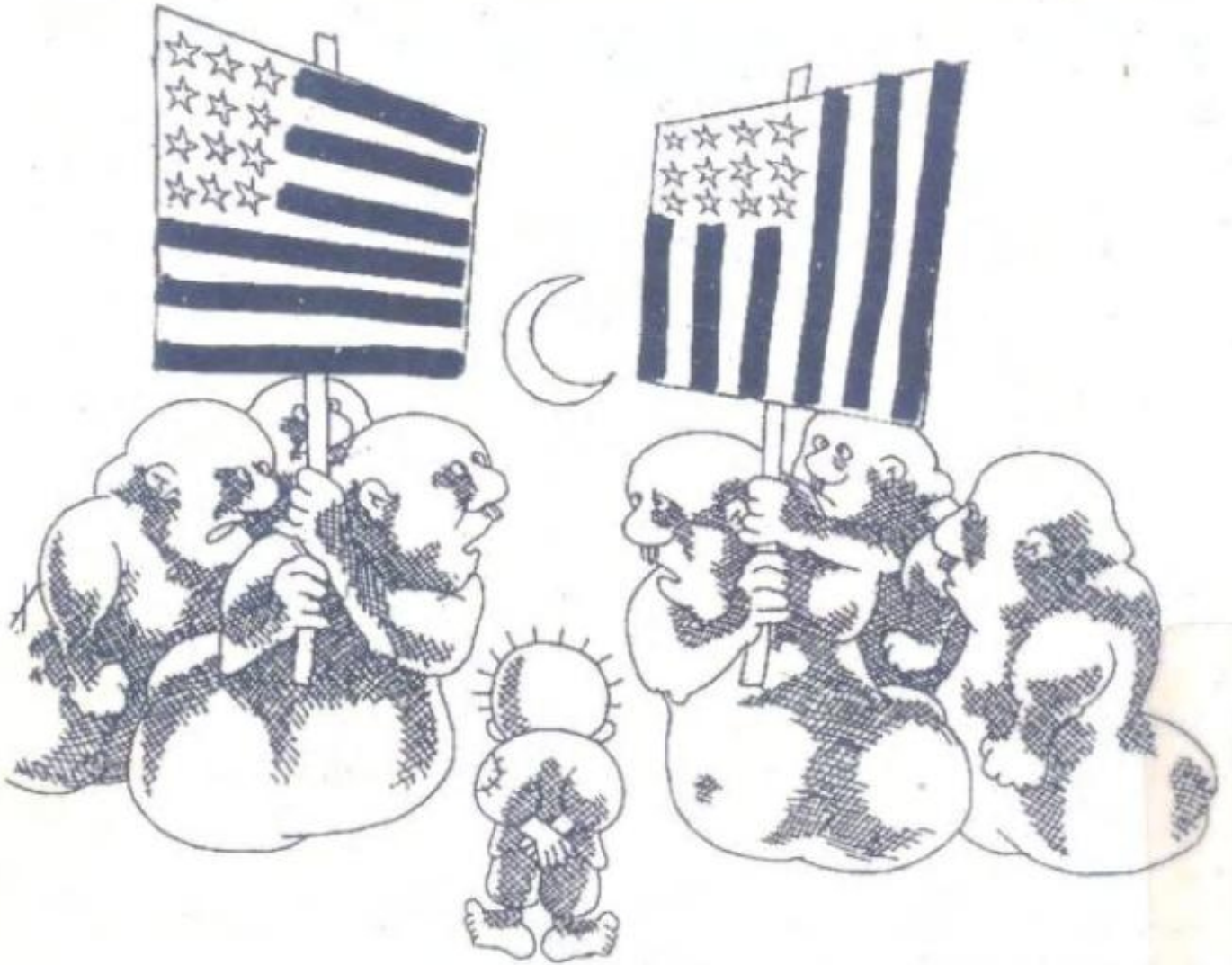


الدكتور محمد الجوادى

المسلمون والأمريكان

فى عصر جديد



جهاد
للنشر
والتوزيع



د. محمد الجوادى

المسلمون والأمريكان فى عصر جلايل

الناشر

دار جهاد للنشر والتوزيع

٢٠٠٣

**المسلمون والأمريكان
في عصر جديد**

الكتاب : المسلمون والأمريكان في عصر جديد

المؤلف : د. محمد الجوادى

إشراف : محمد نوار

إخراج فنى : زينب طيبى

الطبعة : الأولى ٢٠٠٢

الناشر : دار جهاد للنشر والتوزيع

٢٦ ش إسماعيل أياضة، محطة مترو انفاق سعد زغلول، لافوغلى

٧٩٦٤٧٨٢: ٣٥

حقوق الطبع محفوظة

إهداء

إلى الأستاذ الدكتور كمال بشر
النحوى المبرز، واللغوى العريق، والمجمعى الكبير

محمد الجوادى

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب كثيراً من موضوعات الساعة بجسارة فكرية وعقلية كفيلة بالنفوذ إلى جوهر المشكلات والتوجهات في السياسة العالمية، ويطرح فيه مؤلفه تصورات فكرية متميزة ومخالفة للشائع من الأفكار المتداولة والمكررة وهو على سبيل المثال يجاهر في الباب الأول بأن الدعوة إلى الإسلام أجدى بكثير من الدفاع عنه، كما يستعرض مبرراته للتنبؤ بأن أمريكا قد تعتنق الإسلام عن قريب، وهو يحلل الأسباب التي باعدت بين السياسات الأمريكية وبين جذب أفئدة بنى قومه سواء في هذا الموقف من الصورة المنطبعة عن المعونة الأمريكية وما عبرت عنه رسائل أجهزة التليفونات المحمولة في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كما يلقي الضوء على الدور الذي يلعبه الدين في انتخابات الرئاسة الأمريكية.

وعلى سعيد آخر يقرر المؤلف في الباب الثاني مدى صعوبة الأخذ بفكرة العولمة في مجالات تقليدية وقابلة للعالمية كالصحة والطب ويناقد الجوانب المختلفة لهذه القضية كما يستعرض الوجه الآخر لقضية التقاليد العربية الإسلامية (أو المحلية) في سياق العولمة. كما يبلور رأيه القائل بأن النمو الإسلامى فى ماليزيا وأندونيسيا كان مستهدفاً من الأزمة الاقتصادية التي فرضت على الدول الآسيوية فى أخريات القرن العشرين، ويثنى على نجاح الضمير الفرنسى (والأوروبى) فى التصدى للنزعة العنصرية التى تبناها لويان ودفعت به إلى مكانة متقدمة فى انتخابات الرئاسة الفرنسية.

وفى الباب الثالث من الكتاب يطرح المؤلف رؤيته المستشرفة لمكانة الإسلام

والمجتمعات الإسلام والمجتمعات الإسلامية في عصر التحالفات الجديدة، وهو يقدم نظرية متكاملة الأركان يكثف فيها رؤيته القائلة بأن العالم المعاصر قد تحول من عصر الحرب الباردة إلى عصر الحرب المتجمدة، ويقدم المؤلف مجموعة من الأدلة على صحة نظريته يأتي في مقدمتها ما كرسته التفجيرات النووية في الهند وباكستان قرب نهاية القرن العشرين، وانطلاقاً من هذه النظرية يحبذ المؤلف دعوة قومه في المجتمع الإسلامي إلى التوجه نحو الصين، وهو ينبه بصوت عال إلى حقيقة الهواجس التي يمكن لها أن تعوق فعالية هذا التوجه، وفي مقابل هذه الدعوة فإنه ينبه إلى حقيقة موقف الروس المعاصرين من التحالفات الجديدة، وهو يجاهر بما لمسه في حوار مع بريماكوف من أن الروس ليسوا على استعداد لإغضاب الولايات المتحدة الأمريكية على أي مستوى من المستويات، ومع هذا فإن المؤلف حريص على أن يصور أزمة المجتمع الروسي المعاصر، مشخصاً بدقة جوهر الأزمات الثلاث التي تعتصر هذا المجتمع، طارحاً في الوقت ذاته التصورات المنبئة عن إمكانية تغلب ذلك المجتمع على مثل هذه الصعوبات.. وبعد هذا يشير المؤلف إلى بعض الإيجابيات التي بدأت تأخذ طريقها لتصبح من السمات المميزة للعالم العربي مع انتقال السلطة في خمسة من دوله (الأردن وسوريا والمغرب والبحرين وقطر) من جيل الآباء إلى جيل الأبناء، ويبدو المؤلف مستبشراً بابتعاد زعامات العالم العربي عن تكريس مشروعية وجودها وسلطانها من خلال الإيدولوجيات، وبالالتزام الزعامات بالجدية على مستويات مختلفة، وبتقبلها لمبدأ تقاسم الأدوار في التفوق العصري، ويعملها على بلورة الأمل في الانتظام.

وفي الباب الرابع من الكتاب يستعرض المؤلف أفكاراً جديدة فيما يتعلق ببعض المشكلات التي يواجهها العالم الإسلامي وتمتد إليها أصابع النظام العالمي أو أياديه، وهو يطرح رأيه القائل بغياب دور الدبلوماسية الإسلامية في قضية القدس وخطورة هذا الغياب، كما يحلل العوامل الحاكمة للسياسة الأمريكية تجاه العراق، والأنماط الفكرية التي تساهم في تكوين القرار الأمريكي بخوض الحرب ضد النظام العراقي،

وفى فصلين متتاليين يقدم المؤلف وجهة نظره فى طبيعة الدور الأمريكى فى جنوب السودان، ومدى الفائدة التى جنتها الحكومة السودانية من إتاحتها الفرصة لهذا الدور، وينبىه إلى المخاطر المحتملة من قيام حكومة دينية ذات توجه مذهبى أمريكى فى جنوب السودان، كما يدق جرس التنبيه إلى أن المساعدات الأمريكية لجنوب السودان ستصب فى اتجاهات غير تنموية.

وفى الباب الخامس يناقش المؤلف طبيعة العلاقات الإسلامية - الإسلامية فى عصر العولمة بادئاً بالحديث عن إشكالية الدين والحرية فى إيران فى ظل نظام حكم الثورة الإسلامية، ومثنيا بالحديث عن الجوانب التى طال إهمالها فى العلاقات العربية التركية، والتجاهل المستمر للدور الذى يمكن للعرب أن يلعبوه فى حل المشكلة الكردية، وفى فصل ثالث يتأمل المؤلف فى الخطوات التى اتبعتها تونس فى هدوء من أجل استعادة الهوية الإسلامية، وفى فصل رابع يقدم نموذجاً واضح الحدود والملاح لبرنامج للتعاون الطبى المشترك بين قطرين إسلاميين، وهو نموذج قدمه من قبل وتمت الاستعانة بروحه.



وعلى مدى صفحات هذا الكتاب فإن المؤلف لا ينكر حقيقة ما بدا لكثير من القراء والمثقفين، ومعهم بعض الحق، من أن العولمة أصبحت سلاحاً فى يد الولايات المتحدة الأمريكية للضغط على المسلمين وإرهابهم.. ومن سوء الحظ أن هذا الفهم ليس خاطئاً تماماً.

وهو لا ينكر أيضاً ما لاح لكثير من القراء والمثقفين، ومعهم بعض الحق، من أن العولمة ستصبح كالأمم المتحدة آلية تستطيع الولايات المتحدة من خلالها أن تنفذ أهدافها فى المناطق المختلفة من العالم، وفى المشكلات المتعددة التى تواجه العالم.

كذلك فإن المؤلف يشارك مواطنيه الرأى فى أن العولمة كانت توجهها عالمياً انتهى بأن صب فى مصلحة الأغنياء من دول العالم، ويكفى للدلالة على هذا ما تضمنه تقرير البرلمان الألمانى عن عشر سنوات من العولمة، وهو التقرير الذى عرف باسم

«تقرير فون فايتسكرك»، وقد أوضح هذا التقرير أن الفجوة بين فقراء العالم وأغنيائه أصبحت سبعين مرة بعد أن كانت لا تزيد عن ثلاثين مرة قبل بدء تطبيق العولمة.

كان التبشير بالعولمة ينادى بها من أجل عالم تسوده الحرية والديمقراطية والرخاء والسلام، وينعم بمنجزات العلم والتكنولوجيا، ويحترم الكرامة الإنسانية، ويشعر بالعدالة والمساواة، ويحترم حدود الدول وعاداتها وتقاليدها وأعرافها، ويؤمن بحرية الشعوب في اختيار نظمها، عالم تحكمه معايير واحدة متفق عليها دولياً، ويسود فيه التكامل والتآزر بين ثروات الشعوب، وحسن إدارتها واستغلالها، وتعود فيه سياسة المعيار الواحد لا المعايير المزدوجة، ويحترم الأديان والعقائد وحقوق الإنسان.

ولكن السنوات التي مضت منذ بدأ التبشير بالعولمة أثبتت أن التبشير شيء والممارسة شيء آخر حتى ليتمكن القول بأن نتائج الممارسات السياسية لم تتركس إلا عكس معظم ما بشرت به العولمة.



ومع كل هذا الحقائق فإن المؤلف يقترح أن نفيد بأقصى ما يمكننا من العولمة بدلا من أن ننشغل في مناقشة جدوى فكرتها ومغزاها، وهو لا ينكر ضرورة مثل هذه المناقشة، ولكنه لا يراها معطلة لنا عن أن نفرض رغباتنا ومتطلباتنا وأن نبدي آراءنا ومقترحاتنا، وهو، على عادته، يضرب مثلاً بسيطاً للمطالب التي يمكن لنا أن نسارع بطلبها في ظل العولمة، فنحن نستخدم الفنادق، شأننا شأن البشر، ولكننا نضطر إلى حمل البوصلة أو إلى السؤال المباشر عن اتجاه القبلة على حين أن الأمر لا يكلف الفنادق شيئاً إذا هي راعت أن من بين مستخدميها مسلمون يصلون في اتجاه معين، ومن ثم فإن عليها أن تجعل من مقوماتها وضع هذا الملصق في كل حجرة من الحجرات الفندقية في جميع أنحاء العالم.. لو أننا أصررنا على هذا الطلب البسيط الذي لا يكلف أى فندق إلا ما هو أقل من ربع دولار في الحجرة الواحدة لحققنا لأنفسنا قبل أن نحقق للغير إحساساً بطبيعة العولمة التي تراعى «الجميع، على أرض «الجميع»، ولأصبح بوسعنا في مرحلة تالية أن نفيد [على نحو اقتصادي وتجاري] من قرار الأمم

المتحدة في ١٩٧٣ باعتبار اللغة العربية إحدى اللغات الرسمية، ولأصبحت كتالوجات كل شيء ناطقة بالعربية بالاضافة إلى اللغات التي تختارها، وليست الفائدة من مثل هذه الخطوة فائدة «استعلامية، أو معرفية، أو مظهرية، فحسب، ولكنها تتعدى هذا كله إلى جوانب حضارية كثيرة لاتزال تشغل بال من يفكرون في التعاون الدولي والسلام العالمي، ومنها على سبيل المثال، مشكلة نقل التكنولوجيا التي تنحل عقدها أول ما تنحل بانحلال عقدة اللغة. ويضرب المؤلف، مرة أخرى، مثلاً بسيطاً يوضح مثل هذه الفائدة مشيراً إلى أن ترجمة الكتالوجات تخلق طبقة من المترجمين التكنولوجيين، وتضع على عاتق أهل اللغة ومجامعها مجارة الحضارة بنفس القدر من سرعتها، وفي هذا وحده بث للحياة في اللغة وألفاظها ومصطلحاتها، وهو يلخص هذا المعنى في عبارة واحدة تقول إن الحد الأدنى من مواكبة التقدم التكنولوجي يتمثل في إيجاد اسم عربي للخطوة التكنولوجية التي تمت في أي نطاق وأي تخصص، وبوجود هذا الاسم، سواء أكان اسم ذات أم اسم معنى، يبدأ فهم التكنولوجيا، ومن ثم التفكير في نقلها.

هذان مثلان سريعان ينبئان عن كل ما ينبغي لنا أن نفكر فيه في اتجاه توظيف العولمة المفيدة على نحو ما نفكر في خشية العولمة الضارة.



وعلى مدى صفحات هذا الكتاب يطالع القارئ رؤية فكرية أصلية لا تردد ما هو شائع ولا ما هو جاهز أو مقولب، وإنما يستخدم المؤلف فكره وثقافته من أجل أن يقدم لقرائه وللمواطنيه زاداً فكرياً متميزاً بالأصالة والمعاصرة في آن واحد، وهو لا ينطلق في كل ما يراه إلا من إيمان عميق بدور الإنسان الذي استخلفه الله على هذه الأرض. والله سبحانه وتعالى نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

أمريكا والإسلام

- هل تعتقد أمريكا الإسلام؟
- الدعوة إلى الإسلام أجدى من الدفاع عنه
- لماذا فشلت أمريكا فى جذب افئدة المصريين؟
- رسائل المحمول فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١
- الدين وانتخابات الرئاسة الأمريكية

هل تعتنق أمريكا الإسلام؟

ليس هذا السؤال بغريب على الذين قرأوا التاريخ الإنساني، وقد حدث أكثر من مرة أن اعتنقت الدول القوية أو الإمبراطوريات المسيطره ديناً لم يكن دينها الأصلي، وبفضل هذا الاعتناق استمرت هذه الإمبراطوريات في موقع السيادة على الرغم من تغير دينها الرسمي، وربما كان أوضح الأمثلة على هذا ما حدث عندما اعتنق التتار الدين الإسلامي بعد حروبهم الشرسة مع دولة الخلافة الإسلامية ودويلاتها، كما أن موقف الإمبراطورية الرومانية من الديانة المسيحية سببه بهذا الموقف، بل إنه في داخل الدين الواحد حدث أن تغيرت عقائد أصحاب القوة أو حدثت تحالفات بينهم وبين أصحاب الدعوة، ولعل المثل الأكثر وضوحاً هو ما حدث في نجد من تحالف بين الشيخ محمد عبد الوهاب وبين سعود الكبير.

ويبدو للمتأمل أن أمريكا بدأت تفكر في خطوات على مثل هذا الطريق، فهي في واقع الأمر دولة بنيت على أساس ديني، فإن لم يكن ينبأ تماماً فهو أخلاقي أو قيمي على أقل تقدير، وعلى الرغم من أن المسيحية هي الديانة الأكثر انتشاراً في الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أنها ليست مسيحية واحدة، والتمايز بين الكاثوليك والبروتستانت واضح إلى حد بعيد لا تكاد العين تخطؤه أو تغفله، كما أن مكانة الدينين اليهودي والإسلامي محفوظة بأكثر من أي مكان آخر في العالم لا يعتنق هذان الدينان فيهما

أغلبية الجماهير، وليس الدليل على هذا ببعيد، فإننا نلاحظ في الولايات المتحدة حرصاً شديداً على المجالات البروتوكولية للمسلمين واليهود في أعيادهم، كما نرى مؤسسات هذين الدينين قوية إلى حد بعيد، صحيح أن المؤسسات اليهودية تتفوق ولكن هذا ليس بفضل الحكومة الأمريكية أو الشعب الأمريكي بقدر ما هو بفضل المنظمات نفسها، وصحيح أن المؤسسات الإسلامية بدأت تتقوى وتثبت نفسها، ولكن هذا لم يحدث إلا بعد أن استطاعت هذه المنظمات الحضور، وإثبات الذات..

وعلى كل الأحوال فإن الحاجة إلى الدين تميز المجتمع الأمريكي على الرغم من التظاهر بالابتعاد عنه، والارتباط بالدين مرتفع في الأداء الأمريكي عنه في أي مكان آخر، والعملية الأمريكية لا تزال تحمل العبارة الشهيرة التي تقول: «نحن نثق بالله»، بل إن التعاليم الدينية تكاد تفرض نفسها في كثير من مجريات الحياة الاجتماعية على نحو مدهش، فالتقاليد البيورتيانية تحظى حتى اليوم بقبول والتزام في منطقة الشمال الشرقي من الولايات المتحدة على سبيل المثال، والفصل بين الجنسين في الدراسة نمط أمريكي قد لا يتصور الأوروبيون حدوثه ولا الأخذ به، بل إن أمريكا هي صاحبة البدعة بإيجاد كليات جامعية للبنات فقط! وهي الفكرة التي نقلناها في كليتي البنات (في جامعتي عين شمس والأزهر)، ثم تفرعت كلية البنات إلى كليات تكون شبه جامعة نكتفي بتسميتها فرع البنات من جامعة الأزهر.. كما أخذ العالم العربي عن مصر هذه الفكرة التي وجدنا لها سندا في التعليم الأمريكي العالي.

لا أحب أن أستطرد مع القارئ إلى كثير من التفاصيل، ولكني أظن أن الصورة، التي أريد رسمها، قد أصبحت شبه واضحة، فأمریکا لا تعادي الدين على نحو ما فعلت الدولة السوفيتية وشبيهاتها، كما أنها لا تهتمش على نحو ما فعلت مجتمعات إسلامية معاصرة، ولا تفصل بينه وبين الحياة فصلاً تاماً على نحو ما تفعل أوروبا، لكنها تأخذ بسياسات أقرب إلى السلوك المصري المعاصر تجاه الدين، تلجأ إليه الدولة في كثير من الأحيان، ومع هذا فهي حريصة على أن تجعل الدين يلجأ هو الآخر إلى الدولة، ولا يستولى عليها، ولا تكون له سلطة من أي نوع على تصرفات الدولة حتى وإن تغلب على تصرفات الحكومة في بعض الأحيان..

تأخذ أمريكا بهذا السلوك دون أن تعلن عن توجه معين تجاه الدين.. أى دين، ولكنها حريصة على أن تخرج من هذا الضباب الذى تتركه يتكون حول توجهاتها بتأكيد واضح على التمسك بالقيم الأخلاقية.

ومع هذا فإن الولايات المتحدة الأمريكية بدأت أكثر من طريق فى الاتجاه إلى الإفادة من الإسلام نفسه بعد أن بدأت دراستها له تتبلور ، وليس ببعيد أن تكون الصورة فى المرحلة القادمة قريبة من التصورات التى يوحى بها عنوان هذا الفصل ، والتى يمكن لنا أن نتأملها من خلال الفقرات التالية .

نحن نعرف أن المسيحية كديانة لا تشمل ما يشمله الإسلام من قواعد سماوية محددة للمعاملات، أو ما يعرف فى الإسلام بالشريعة، ولهذا السبب فإن أمريكا لا تجد حرجاً فى أن تفسح المجال للاجتهاد البشرى فى صياغة قوانينها، ولكنها تتمنى ، فى بعض الأحيان ، لو كان عندها ذلك الزاد التشريعى المرتبط بقوة قاهرة قادرة واجبة الاحترام والتقدير، وتجد الولايات المتحدة الأمريكية فى الإسلام ذلك الجانب التشريعى المتميز بالزخم الذى لا حدود له فتعجب به، وتعجب لوجوده ، ولكنها تفاجأ ببعض المسلمين يشوهون لها الصورة، ويتعمدون أن يخيفوها من الإسلام الذى يحرم الخمر، ويحرم معاملات البنوك، ويطلب من الإنسان أن يشغل نفسه بالصلاة خمس مرات فى اليوم.

ولم يزل أعداء الإسلام من المنتمين للإسلام بالاسم يصورون الإسلام على هذا النحو المزعج حتى حدثت القارعة، وبدأت أمريكا تهتم بالإسلام، وبدأت تدرسه بنفسها، فإذا هى بمعاهدها ومؤسساتها أمام صورة مختلفة عن الصورة التقريبية أو المشوهة أو الكاريكاتيرية التى رسمت للإسلام.

وها هى أمريكا من خلال معاهدها البحثية ومؤسساتها العلمية تجد فى الإسلام الحقيقى قيماً واضحة الحدود والمعالم لكل الموضوعات، وإذا هى مع استمرار الانشغال بالإسلام ودراسته وتقدير مخاطره تكتشف أن ذلك الدين هو الدين الأكثر انتشاراً،

والأكثر قبولاً للانتصار، كما أنه هو الدين الذي يتمكن من نفوس أتباعه ويكفل توجيههم تماماً، كما أنه يكفل للدولة عناصر قوة مرتبطة به، وأنه دين ذو طيف واسع من الأتباع، وهي تكتشف أن بعض المسلمين يحلون بعض الشراب، وأن بعضهم الآخر يمارسون الغناء ويتفننون فيه، وأن بعضهم الثالث يمارسون التصوير بكل فنونه ويبدعون فيه باقتدار لا حدود له على مر القرون، وأن بعضهم الرابع يجيزون جمع الصلوات في النهار دون حرب ودون سفر، وأن بعضهم الخامس يجيزون ويشجعون ويتفوقون في معاملات البنوك، وأن بعضهم السادس لا يلتزمون الحجاب ولا النقاب، وأن بعضهم السابع يحلون نكاح المتعة.. وهكذا.. وهكذا.

ومع كل هذه الفروق بين المسلمين من حول أمريكا (وفي داخلها أيضاً) يبقى هامش واسع للاتفاق على عبادة واحدة ورب واحد لا إله إلا هو، ونبي خاتم عليه أفضل السلام، وأركان محددة، وصوم محدد الزمن ومرتبطة بالظواهر الطبيعية لا يقبل التأويل ولا التجزئة، وزكاة عن المال ذات نسبة محددة، وذات حرية مطلقة في مصارفها، وحج محدد بمرة واحدة في العمر إلى مكان محدد في زمن محدد يتكف حتى يجتمع الحجاج جميعاً في يوم واحد لأداء الركن الأعظم.

وهكذا تكتشف أمريكا يوماً بعد يوم مدى قربها من الإسلام، وتكتشف أن مصلحتها في اعتناقه وقيادة شعوبه والاستفادة من رصيده التشريعي الضخم على نحو ما يتحول الإنسان الآن إلى شركات الكمبيوتر العملاقة العاملة في برامج التشغيل ليفيد من مكتباتها الضخمة.

والأمر إذاً لا يعدو، في ظاهره، تلبية حاجة الإنسان إلى دين يتوافر فيه ما لا يتوافر في غيره في ظل حاجة ملحة إلى روحانيات تتطابق وتبحث عنها زعمية المادية.

من ناحية أخرى فإن أمريكا بعد تحليل مستمر أوشكت على أن تكتشف قوة الروحانية في هذا الدين، فهي ترى مدى قوة الضربات التي وجهت له دون أن تؤثر

فيه، وهي ترى مدى الطاقة الروحية التي يمد بها هذا الدين أبنائه حتى لو لم يكونوا مستوعبين له تمام الاستيعاب، وهي ترى كذلك مدى قدرة هذا الدين على الإقناع وعلى الصراع، ولأن أمريكا بطبعها وظروفها تعشق القوة وتتمنى كل ما يهيئ لها المزيد من هذه العناصر، فإنها تجد نفسها بحكم طبائع الأشياء مقبلة على هذا الدين.



هذا هو التصور الذي نرى من خلاله علاقة أمريكا بالإسلام فى السنوات القليلة القادمة.

وليس الأمر بعد هذا أمر قرار سياسى أو قرار برلمانى، وليس هو خطة توضع وتنفذ على مدى سنوات، ولكنه بالطبع سيكون شيئاً آخر غير تقليدى، يحدث بدون تخطيط وإن جاء بعد دراسة وتأمل، ويحدث بدون تحديد وإن جاء بعد توقع.. وعندئذ ستتغير صورة العالم إلى صورة أخرى لا نستطيع أن نرسم ملامحها مهما أوتينا من القدرة على التنبؤ والتوقع وفهم الطبائع، وربما نقول وقتها إن الإسلام سوف يشرق مرة أخرى، ولكن من الغرب.

الدعوة إلى الإسلام أجدى من الدفاع عنه

يبدو لى أن أعداء الإسلام التقليديين يواصلون باستمرار ويزدهار نجاحهم فى وضع المسلمين فى خانة المتهم المطالب بتقديم مسوغات الدفاع عن نفسه وعن معتقداته وعن سلوكه، وإذا بالمسلمين أنفسهم (هم ومن يتحيز إليهم) ينساقون أو ينزلقون أو يتدحرجون إلى الانحصار فى الدفاع عن الإسلام فى مواجهة الدعاوى التى تثار حوله وحول معتنقيه، رغم أن المقتضيات المنطقية والفكرية لا تلزم بهذا، ولا تدفع إليه، ورغم أن الدفاع عن النفس لا يتطلب مثل هذا الأسلوب، ورغم أن الاعتزاز بالإسلام وقيمه لا يتحقق عن مثل هذا الطريق، وفضلاً عن هذا فإن الانشغال فى مثل هذه الدفاعات كفى فى حد ذاته بتقليص صورة المشاركة الطبيعية للمسلمين فى الحياة وتحويل هؤلاء المسلمين (أو المتشيعين له من بين أهله) من أناس طبيعيين وطموحين إلى متهمين ومحاصرين ومقيدين، وذلك بدون أية فائدة من ناحية، ولا أى داع من ناحية أخرى.

وربما أجدنى بحاجة إلى أن أذكر مثلاً بارزاً للردود المعبرة عن سرعة البديهة وعن جوهر الحقيقة فى الوقت ذاته قبل أن أنقل إلى موضوع حديثى.. ذلك أنه فى الأعقاب المباشرة لأحداث ١١ سبتمبر ذهب أحد زعماء المسلمين الأمريكيين المشهورين إلى موقع الحادث، فما كان من بعض الصحفيين الموجهين إلا أن ألقوا فى

وجهه بالقول السهل: هذا ما فعله المسلمون!! وكان رده للتو وفي نفس الحظة: لقد كان هتلم مسيحياً!!

ومبلغ ظنى أن دائرة الحديث عن نبذ الإسلام للعنف لن تنتهى بإقرار هذه الحقيقة المتعلقة بنفى التلازم بين الإسلام والإرهاب، ولهذا السبب فإنى لا أستطيع أن أفهم كيف ينشغل علماء أجلاء ومفكرون كبار وأصحاب أقلام فى أن يكتبوا المقالات والفصول تلو بعضها فى فكرة نبذ الإسلام للعنف ثم ينشرونها بين المسلمين بينما هم يتحدثون عن أمر معلوم من الدين بالضرورة ، وبينما هم يتجاهلون ما هو أدعى إلى بذل الجهود من أجله .. ولكن ماذا نفعل وإغراءات الحديث على هذا النحو كثيرة ، من دعوات إلى مؤتمرات وإلى ندوات وإلى سفرات وإلى مكافآت وإلى تلميع وتستطيع .. والأمر مع هذا لا يعود تكراراً لحديث بدهى فى مجتمع ليس فى حاجة إلى سماع مثل هذا الحديث فى وقت ينوء بأثقاله ولا يرحب بالضياح.



وأعود لألفت النظر إلى حقيقة مهمة لا ينبغى أن نتجاهلها ونحن نتحدث عن نبذ الإسلام للعنف وهى حقيقة أن الإسلام لا يزال وسيظل يحتفظ بتقديسه وإعلانه لشأن فكرة الفداء والاستشهاد، وهى الفكرة التى تحاول المجتمعات الغربية من ناحية أخرى ودون هدف واضح أن تستأصلها تماماً بحكم تنامى منظومة القيم التى تدور دعايتها فى فلك فكرة إعلاء قيمة الاستمئاع بالحياة ومباهاجها.

ومع أن جوهر الفكر الإسلامى لا يعارض فى هذه الفكرة التى تدعو إلى الاستمئاع بالحياة وإنما يهذبها ويعمقها بالامتداد بالحياة نفسها إلى العالم الآخر الذى هو الأخلد والأبقى والأبدى، إلا أن بعض كتابات الحضارة الغربية لا تمل ولا تياس من مواجهة مثل هذه الأفكار الروحانية التى لا يزال الإسلام يطرحها بوسائلها التقليدية متمثلة فى الإلحاح على الحاضر، وتصويره فى صورة «الحقيقة الوحيدة، بناء على فكرة تقديس الأمر الواقع الذى تدركه الحواس ووضع أو تصويره على نحو يفوق بالطبع ما قد يصل إليه الخيال من تصور العالم الآخر.

وعلى الرغم من هذا كله فإن الطبيعة الحقيقية، والفطرية، للنفس البشرية تمضي في اتجاهات متعددة تستعصى في مجمل مساراتها على أن يحيط بها إدراك الحضارة المادية أو تصورها، على حين أنها في الوقت ذاته كثيراً ما تتلاقى في النهاية مع التصور الذي تقدمه دعوات القيم المنتصرة للروحانيات وفي مقدمتها الإسلام.

ولهذا السبب فإنني أتصور أن المسلمين ومفكريهم مطالبون بمسلك مختلف عن المسلك الذي فضلوا اللجوء إليه في الوقت الراهن ، وبوسعي أن أخصه في الفقرات التالية.



أبدأ بالإشارة إلى إحدى الحقائق المهمة وهي أن القيم الإنسانية العامة (ولا نقول الإسلامية أو الروحانية) تعلى بشدة من قدر فضيلتي الإيثار وإشراك الآخرين في السعادة والاستمتاع بما هو ممكن للجميع، وتدعو بطريقة تلقائية إلى ضرورة انتشار مثل هذه القيم وسيادتها، ويتبدى هذا المعنى واضحاً على سبيل المثال في تعبير الإنسان عن سعادته وهو يحكى للآخرين عن استمتاعه بشيء بادئا الحديث بقوله: «ليتك كنت معي»، ولما كان الأمر كذلك، فإن هذه القيم نفسها كفيلة بأن تفرض على كل مسلم موقفاً إيجابياً من دعوة الآخرين إلى أن يشاركوه السعادة والاستمتاع بما تتيحه له العقيدة الإسلامية من سمو خلقى واستقرار نفسى وهناء اجتماعى، وهو المعنى الذى يتمثل فى بساطة شديدة فى إعلاء فكرة الدعوة إلى الإسلام واعتبارها من الواجبات التى يجب على السعداء بالإسلام أن يمارسوها بإيجابية ليشاركوا غيرهم فى النعمة التى أتاحت لهم باعترافهم للإسلام أو خروجهم إلى الحياة مسلمين.

على أن هذا لا يعنى بالضرورة أن كل من يحمل لقب المسلم ملزم بهذا لأننا لا نزعم أن كل مسلم قد وصل إلى القدرة على الدعوة فضلاً عن وصوله إلى هذه المستويات المعقولة من سمو الخلق واستقرار النفس والهناء الاجتماعى، وهنا ربما يثور السؤال التقليدى: هل تعتقد أن كل مسلم مكلف بهذه الدعوة بحكم إسلامه؟ أم أنها لا بد أن تقتصر على أولئك الذين حققوا هذه المستويات الخلقية والنفسية والاجتماعية بحكم

ما وصلوا إليه؟! وحققوا بالإضافة إلى هذا القدرة على التعبير عن سعادتهم واستمتاعهم، وعن تحديد السر الحقيقي في هذه السعادة، وهذا الاستمتاع؟

بعبارة أخرى هل يمكن لنا أن نتصور أن كل المسلمين مطالبون بالدعوة إلى الإسلام على نحو ما هو متاح لهم في ممارستهم وتصورهم؟ أم أن هذه الدعوة تظل منوطة فقط بأولئك وصلوا إلى مرحلة محددة من الانتماء لمنظومة القيم الإسلامية؟

وربما يتطرق بنا التفكير على هذا النحو إلى طرح السؤال المرتبط بمدى مشروعية قيام كل صاحب عقيدة بدعوة الآخرين إلى عقيدته.

ربما يجيب مثل هذا السؤال عن نفسه بما هو حادث على أرض الواقع، ولكن الواقع للأسف الشديد يفتننا أن العالم الذي نعيش فيه لا يزال، حتى اليوم، يعاني من الحساسية المفرطة تجاه سياسات التبشير، وأن هذه السياسات على الرغم من المرازقات الضخمة التي رصدت لها لم تحقق ما هو مطلوب ولا ما هو مستهدف، بل إن هذه السياسات لم تؤت ثمار نجاحها إلا حين ارتبطت بتقديم العون الاقتصادي إلى من هم في أشد الحاجة إليه على جميع المستويات.



على أن بارقة الأمل الكبير تنبئنا، من ناحية أخرى، أن الإقبال على اعتناق الإسلام قد صدر في كثير من الحالات عن منطلقات مختلفة تماما، وأن هذه المنطلقات كانت لحسن الحظ فكرية وعقلية وخلقية في المقام الأول، ولم يحدث في عصرنا الحاضر أن اعتنقت جماعات كبيرة أو صغيرة الإسلام من أجل حاجة اقتصادية أو هدف معيشي.. بل لم يحدث خلال القرن الماضي كله أن سعى أحد إلى الإسلام من أجل تحقيق النفوذ السياسي أو الاجتماعي.. وإن كان هذا لا يمنع ما فصلنا التنبؤ به في الفصل السابق من هذا الكتاب من إمكانية توجه أمريكا إلى اعتناق الإسلام.

وكل هذا إذا ما فهم على نحو جيد يكفل لنا أن نفهم وأن نقدر مدى القوة الكامنة في القيم الإسلامية الكفيلة بتقديم نفسها إلى ذرى الألباب في العصر الحاضر.

والذين يقرأون التاريخ الإسلامى يستطيعون أن يدركوا، بكل وضوح، أن الصراع المتصور بين المسلمين وبين غيرهم لن ينتهى بالقضاء على المسلمين ولا على الإسلام، ولكنه سينتهى باكتشاف الإنسانية المتفتحة في العالم المتقدم لمدى خصوبة وثراء القيم الإسلامية، وسيعتق هؤلاء الإسلام، وستكون معركتهم الحقيقية هي الانتصار للإسلام الحق على نمط آخر من السلوك اكتسب مسمى الإسلام بدون وجه حق.



وعندئذ فلربما تكون نهاية التاريخ متمثلة في الصراع بين إسلام حقيقى تقدمى وبين جهالات قديمة أو حديثة حملت اسم الإسلام وظنته من حقها وحدها!

ومع أن العصر الذى سيشهد هذا الصراع قادم لا ريب فيه، فإن بإمكان المسلمين المتنورين الإسراع به ليكون لهم شرف المحاولة في صنعه ولا نقول في فرضه ، ولتكون لهم السعادة المتمثلة في أن يعيشوه.

وكل ما يمكننى أن أقوله في هذا المجال إن الدعوة الحقيقية إلى الإسلام أسهل بكثير من الدفاع الملقق منه ، هذا فضلاً عن أنها أجدى بكثير من هذا الدفاع.. أجدى على الإسلام، وأجدى قبل هذا على الإنسانية كلها بما فيها بالطبع من يصنفون أنفسهم أعداء للإسلام وللمسلمين بل وللإسلاميين.

والله غالب على أمره .

لماذا فشلت أمريكا في جذب افئدة المصريين؟

يعتز المصريون بمترو الأنفاق ومشاركة فرنسا فيه، وكذلك بمستشفى عين شمس التخصصي، وقصر العيني الجديد، ويعتزون بقاعة المؤتمرات الكبرى وإهداء الصين لها، ويعتزون بدار الأوبرا هدية من اليابان، وكذلك بمستشفى الأطفال الياباني، وبكلية التمريض في جامعة القاهرة التي أنجزت اليابان مؤسساتها، وبنانوراما حرب أكتوبر ويعتبرونها هدية كبرى من كوريا، وينفق الصرف الصحي في القاهرة ويعتبرون المشروع هدية ثمينة من بريطانيا، كما يعتزون بتجهيز ألمانيا لمكتبة مبارك الكبرى ولغيرها من المكتبات.. لكنهم يبحثون عن مؤسسة أمريكية شبيهة بهذه المؤسسات فلا يجدون شيئاً ظاهراً للعيان يصور لهم روح المحبة بين الشعبين على الرغم من أن المصريين يعجبون بأمريكا من خلال السينما وغير السينما.

ويحدث هذا كله على الرغم من أن المعونة الأمريكية لمصر تقدر بمبلغ كبير سنوياً قد لا يعنى المصريين أن يكون ملياراً أو عشرة ولكنهم يعرفون أنه مبلغ كبير وكفى، وعلى الرغم من أن هذه المعونة مستمرة منذ أكثر من عشرين عاماً، ولكنها للأسف الشديد صورت في أذهان المصريين، والمثقفين منهم بخاصة، على أنها لا تنفق إلا وفقاً لشروط أمريكية على أشياء تبدو لمعظم المصريين وكأنها غير مثمرة على الإطلاق، وذلك من قبيل ما يسمى بالتدريب، وسنضرب على هذا مثلاً يبدو

عمومياً ولكنه كفيلاً بتقريب الصورة على نحو ما هي في أذهان المصريين ففي منح التدريب المهني هذه يتدرب «غير المختص» على «شيء لن يؤديه»، وربما لا يؤدي ولن يؤدي في مصر، لكنه مع ذلك «وهو غير مختص» يتلقى مقابلاً لتدريبه كما ينفق مقابل آخر على المدربين وعلى المشرفين على التدريب، وعلى مديري التدريب، وعلى برامج مطبوعة للتدريب، وعلى نفقات إقامة وإعاشة المتدرب.. وهكذا، ويصل تدريب أي فرد مصري في موازنة المعونة الأمريكية لمدة أسبوع إلى ما يوازي مرتبه «المصري» طوال عشر سنوات بلا أدنى مبالغة، وصحيح أن بعض الفنادق المصرية وبعض المطاعم المصرية وبعض الشخصيات المصرية قد تستفيد من هذا الذي لا يمكن وصفه في ظل ظروفنا إلا بأنه نوع من السفه، ولكن الحقيقة، مع ذلك، أنها استفادات وقتية واستثنائية.



وعلى الرغم من هذا فإن معظم الذين يسوغون عمل المعونة على هذا النحو يصورون التدريب على أنه مشكلة مصر الكبرى، وأنه لا ينقص مصر غير التدريب، وأن التدريب وحده هو الكفيل برفع مستوى الأداء ومن ثم برفع قيمة الإنتاج ومستواه وعائده.. وهذا حق لو أن التدريب وجه إلى وظائف ذات جدوى أو لوجودها فائدة ما، ولكنه يوجه في غالب الأمر إلى وظائف هي نفسها وهمية المهمة، وهمية الوجود.

على أن الأخطر من هذا أن التدريب الموجه إلى غرض محدود ومحدد لا يمكن له أن يرقى بأسلوب المتدرب فيما يتعلق بممارسته لمهنته ولا لوظيفته ولا لإنسانيته، لأنه كما نعرف تدريب محدود المدة وموجه إلى جوانب مهنية فحسب، وهو يقدم لمتلقى التدريب بجرعات ضخمة في وقت محدود على طريقة البوفيه المفتوح.

وينتشر هذا الأسلوب الأمريكي في التدريب في كثير من المجالات من تنظيم الأسرة إلى تطوير التعليم إلى مشروعات إدارة المستشفيات واسترداد نفقات العلاج إلى

تنمية أو تطوير أو تفعيل المجتمع المدني.... دون أن تظهر له أية نتيجة فى الأداء العام لأنه يظل متناثراً ومحدوداً وصورياً.

ورغم ضخامة الإنفاق فإنه لا يؤدي ما كانت تحققه سياسة إيفاد الموظفين النابهين إلى المجتمعات الغربية لتطوير فكرهم ولإطلاعهم على الجديد والمستحدث وعلى أساليب الحضارة ، وهى سياسة ناجحة لم تكن تتطلب من النفقات ما يصرف الآن على التدريب الأمريكى .

ومع هذا فإن أحداً لا يستطيع أن يوجه أمريكا إلى خطورة تبنيها لمنهج الاستمرار فى هذا الأسلوب الذى لا يفيد من ناحية، ولا يفيد مصر من ناحية أخرى، وإنما هو على النقيض من هذا يجلب كثيراً من الانتقاد الدائم لأسلوب تنموى عقيم فى وطن لا يزال يحتاج كل جهد ممكن من أجل التنمية الحقيقية والملحة.



ويتصل بهذا المعنى الأسلوب الذى تباشر به إدارات المعونة الأمريكية تنفيذها لسياساتها فى إنفاق أموال المعونة الأمريكية، ومن المدهش أننا قد نفاجأ بأن بعض ما فى هذا الأسلوب كان بمثابة السبب الجوهرى لأزمات أوشكت على تهديد صحة المجتمع المصرى مؤخراً، ولم يحدث هذا التهديد من فراغ، وإنما لأن برامج التدريب والتحسين الأمريكية لم تلتفت إلى القضية الجوهرية فى إطارها الكلى، وإنما تناولتها كما ألمحنا فى إشارات متناثرة.

وسنرى من التفصيلات التى نعرضها فى الفقرات التالية أن النتيجة الحتمية للأسلوب الأمريكى فى تناول المشكلات هى أن تنشأ مشكلات أكبر لم توضع فى الحسبان، والأمر فى هذا شبيه بتدريب الطلاب فى مدرسة ثانوية محلية على لعبة الكرة الطائرة، وتكثيف هذا التدريب من أجل الحصول على بطولة، بينما الملعب الوحيد المتاح لتدريبهم يقع فى وسط المدرسة تماماً، كما هو الحال الذى نعرفه فى المدارس الثانوية المحلية، ومن ثم فإن أسبوعاً واحداً من التدريب بعد الظهر يكفل

تكسير كل زجاج المدرسة، وأسبوعاً ثانياً في الصباح يكفل تعطيل المدرسة والدراسة تماماً.

ويكفينى من أجل توضيح عقم برامج المعونة الأمريكية - على سبيل المثال - أن أشير إلى هذا النموذج الذى قدمه محرر اقتصادى بارز هو الأستاذ محمود المراغى فى مقال له فى الأهرام ٣٠ يوليو ٢٠٠٢ حيث يقول:

«آخر برامج المعونة الأمريكية، بدأ أو يبدأ هذا الأسبوع، وهو مخصص لتدريب الكوادر اللازمة لإدارة مخلفات المواد الصلبة فى محافظتين هما: القاهرة والقليوبية، وقد خصصت المعونة الأمريكية لهذه البرامج نحو ١,٥ مليون دولار».

نتوقف هنا لنشير إلى أن هذا المبلغ يوازى ثمانية ملايين جنيه مصرى هى إجمالى مرتبات الموظفين فى هيئة قومية على مدى عام !!

ونعود لنقرأ التفصيلات:

«وتم إسناد الإشراف على العملية لمعهد التعليم الدولى بواشنطن الذى طرح بدوره المناقصة اللازمة لبيوت الخبرة التى يمكن أن تباشر عملية التدريب فتقدمت أربع شركات، ثلاث منها مصريات، والرابعة شركة أمريكية».

«وبدأت إجراءات التحكيم ففازت إحدى الشركات المصرية (التي تعمل معها شركة أمريكية وأخرى بريطانية من الباطن) لكن رئاسة المعهد لم توافق على ترسية المناقصة وانتدبت جهة أخرى للتحكيم، ثم جهة ثالثة، وفى المرات الثلاث تفوز الشركة المصرية، وهنا برز شرط لم تتضمنه المناقصة وهو: شرط الجنسية الأمريكية للأعمال التى يزيد حجمها على ٢٥٠ ألف دولار، ويجرى الاعتذار للشركة المصرية وتقديم شركة أمريكية سبق أن أوقفت وزارة الإسكان التعامل معها، وسبق أن

شاركت في أعمال أخرى مشابهة مما يمنعها من الاشتراك في هذه المناقصة.

والتفاصيل بعد ذلك كثيرة، لكن إصرار المعهد المنوط به الإشراف على المناقصة كان واضحاً، وهو ترسية العطاء على الشركة الأمريكية، مما نقل القضية إلى ثلاث جهات أمريكية هي إدارة المعونة في مصر التي لم تقدم ما يصحح الوضع، ومكتب المفتش العام الذي يتابع أعمال الخارج من مقره في بودابست، ثم - وهو الأهم - الكونجرس الأمريكي الذي لجأ له الشريك الأمريكي في المناقصة الذي خاطب نائبه في الكونجرس للإحاطة والتصرف.

صاحب ذلك عقوبة الشركة المصرية التي تضررت بسحب مشروعين للتدريب بعد أن تم إسنادها في وقت سابق.

وصاحب الأمر أيضاً استقالة اثنين ممن يقومون بأعمال استشارية كنوع من الاحتجاج على بعض التصرفات.

ثم يبيلور الأستاذ المراغى جانباً آخر مهماً من القضية، ويقول:

«المفاجأة التي قد لا يعلمها محافظ القاهرة أو القليوبية أن تكاليف المتدرب تصل - كما تردد - إلى ٩٣٢٠ جنيهاً للفرد الواحد نظير أربعة أيام تدريب، وربما تكون المفاجأة الثانية هي أن يكون بعض المتدربين من مشرفي النظافة وليسوا من المستهدفين بالتدريب القانوني والإداري والفني لمثل هذه المشروعات».



على هذا النحو، الذي لخص به الأستاذ المراغى قصة من قصص كثيرة، نرى نموذجاً لصياح مؤكد لمبلغ ثمانية ملايين من الجنيهات المصرية، تكفل - على سبيل المثال - إقامة خمسة عشر مدفن صحي لهذه النفايات في مناطق بعيدة تماماً عن

العمران حتى لا يحدث ما حدث فى الساحل الشمالى، وتفجر هذا الأسبوع حين اكتشفت الصحافة أن الدفن غير النموذجى للنفايات كان السبب فى إصابة الساحل الشمالى بذباب مقاوم لكل المبيدات الحشرية.

ولنقرأ على سبيل المثال بعض تفصيلات أو جوانب المشكلة التى تواجهها الإسكندرية والساحل الشمالى كما لخصها فى جريدة الأخبار هذا الأسبوع محرر البيئـة الشهير الأستاذ محمد عبدالمقصود:

«المدفن الآمن للمخلفات الصلبة بالكيلو ٥٣ بـرج العرب مخالف للمعايير التى وضعتها اللجنة الوزارية الخاصة بإدارة المخلفات الصلبة، لم يمر سوى أشهر قليلة على تشغيله إلا وانتشرت الروائح الكريهة، وهاجمت جحافل الذباب المتوحش المقيمين بالقرى السياحية بالساحل الشمالى ونغصت عليهم استمتاعهم بالمصيف».

«لقد وضعت اللجنة الوزارية لإدارة المخلفات الصلبة ١٢ معيارا لاختيار المرافق الصحية للقمامة وإنشائها، أهمها البعد ٤ كيلو مترات عن الطرق الرئيسية، والبعد كيلومترا عن شبكة الطرق الفرعية ومناطق الآبار الجوفية، و٢ كيلومتر عن المطارات والموانئ، و١٠ كيلومترات عن المناطق الأثرية، و١ كيلومترا عن شبكة الوديان ومناطق الفواق الطبيعية، وأن تجرى دراسة لتقييم الأثر البيئى للموقع على أن يتم الاختيار النهائى للموقع بالتنسيق مع هيئة التخطيط العمرانى والمحليات بعد إعداد دراسة تفصيلية للآثار البيئية نتيجة إنشاء المدفن الصحى بالمناطق المقترحة وتقييمها لاختيار أفضلها، وأن تكون التربة ذات نفاذية ضعيفة للمياه حتى لا تختلط المياه الملوثة بالخزانات الجوفية».

«ولكن موقع المدفن الصحى لا تنطبق عليه هذه الشروط، فالمدفن ملاصق للمناطق السكنية بالساحل الشمالى ولا يبعد ٤ كيلومترات عنها،

كما أنه قريب جداً من شبكة الطرق الرئيسية - طريق إسكندرية - مطروح السريع، رغم أن المعايير تتطلب بعده ١٠ كيلومترات عن الطرق الرئيسية، ويقع في واد قريب من الشاطئ لا تفصله سوى هضبة غير مرتفعة، الأمر الذي أدى إلى مهاجمة الذباب لسكان القرى السياحية القريبة من الموقع الذي أنشئ فيه المدفن، ورغم ذلك أقرت وزيرة البيئة السابقة نادية مكرم عبيد هذا الموقع ولم يتابع وزير البيئة الحالي مراحل تشغيل المدفن لتلافي المشكلات التي تطرأ في أثناء التشغيل.

أما لماذا توالد الذباب بكثرة في موقع المدفن «الآمن»، فالسر يكمن في عدم إنشاء محطة لتجميع المياه الناتجة عن دفن القمامة، ويتم تجميع المياه في حوض مكشوف ثم تسحب بعد ذلك عن طريق العربات إلى محطات الصرف الصحي، فإذا ما تأخر نقل المياه تظهر الرائحة الكريهة التي تعم المكان وتنقلها الرياح إلى سكان القرى السياحية مع الذباب المفترس الذي لا تصلح معه المبيدات الحشرية العادية.



هنا نتساءل أما كان الأجدر بالمعونة الأمريكية أن توجه في الإنفاق على إنشاء المدافن الصحية، وقد رأينا في فقرة سابقة أن المبلغ المنصرف في الإنفاق على التدريب في برنامج واحد [متصل تمام الاتصال بموضوع المشكلة الخطرة] كان كفيلاً بهذا التمويل؟

.....

ليست المعونة الأمريكية وحدها هي المسئولة عن هذا العبث، ولكن أمريكا هي التي تفقد فرصاً كثيرة كفيلاً بأن يتذكرها الإنسان المصري بالخير.

المحمول فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١

قبل أن تصدر صحف الصباح كان المواطنون العرب قد تبادلوا على أجهزة المحمول [الشخصية بالطبع] مئات الصيغ من الرسائل التى وصلت بينهم وبين ما حدث فى ١١ سبتمبر .. ربما كان متبادلوا الرسائل لا يذكرون فى ذلك اليوم أن هذا الحدث قد وقع فى ١١ سبتمبر، وذلك على عادة العقل البشرى الذى لا يذكر تاريخ الحدث باليوم والشهر إلا بعد وقوع الحدث بأيام، ولكن الرسائل اشتملت على كثير من المعانى والدلالات التى أبدعها الوجدان الشعبى والثقافى خلال ساعات قليلة من وقوع الحدث.

بالطبع لم يكن المواطنون العرب قد تصوروا أن الحدث قد انتهى ، ولم يكن ممكناً لهم أن يتصوروا هذا المعنى، ذلك أن شاشات التلفزيون كلها كانت تحمل هامشاً يشير إلى أن أمريكا فى حالة حرب، وأن الحرب مستمرة، وأن ما يظهر من أحداث على الشاشة ليس إلا حلقات فى الحرب التى بدأت ، ولكن بالنسبة للانفعال فإن الأمر فى نظر هؤلاء المتابعين لم يكن بحاجة إلى أن ينتهى الحدث إنما يكفيهم أنه بدأ، وهكذا أصبحت بداية الحدث هى الموضوع ، المفضل على الرغم من أن أحداً لم يتصور كيف تكون نهايته، بل ربما لم ينشغل أصحاب الرسائل فى التفكير فى طبيعة النهاية.

كانت بداية الحدث في حد ذاتها قد فجرت كثيراً من المعانى التي حملتها الرسائل التليفونية القصيرة، فهي أمريكا تنهار ، وها هو أكبر مركز تجارى عالمى يتحول فى لمح البصر إلى أثر بعد عين ، وها هو البنتاجون يفقد أحد أدواره [المعمارية] وبالتالي يفقد أحد أدواره الاستراتيجية فى سهولة وسرعة .. وها هي أمريكا القوية القادرة تتحول إلى هدف سهل الإصابة بل سهل الاختراق.

رسائل المحمول لم تتوقف عند أى حد من حدود الخيال العلمى أو غير العلمى ولكنها تعدت كل الحدود لتعبر عن مكونات النفس البشرية التي عانت طوال عهود مستمرة من غطرسة القوة الأمريكية التي ساندت اعتداءات متكررة على شعب عربى قدر له أن تكون أرضه مطمحا ومطمعا، ومهما كانت الدوافع الاستراتيجية أو السياسية التي جعلت الولايات المتحدة الأمريكية تشجع السياسات التي أخذت بها فإن المواطن العربى البسيط لم يكن سعيداً على الإطلاق بهذا الذى يتوالى من ظلم يسانده القادر ويقع الظلم على شعب ليس بالأعزل تماماً ولكنه أقرب ما يكون إلى الأعزل بالفعل.

كانت عقلية المواطن العربى تتمنى للولايات المتحدة الأمريكية وللشعب الأمريكى وللإدارة الأمريكية أن تصل إلى إدراك حقيقة مهمة وهي أن هناك شعوباً كثيرة تتألم وتعبر عن هذا الألم بقدر ما من الشماتة لما حدث وتوجه هذه الشماتة لمن تعتقد أنه ساعد الظالم على ظلمه ..

من حسن الحظ أن هذه الرسالة قد وصلت إلى الإدارة الأمريكية، ومن ثم صرح إداورد ووكر بأنه يود أن ينبه الشعوب الأخرى إلى خطورة انتشار ظاهرة الشماتة فى أحداث ١١ سبتمبر، وإلى أن الشعب الأمريكى لن يكون سعيداً بهذه الشماتة بالطبع .. على الطرف الأخر كان أصحاب الرسائل سعداء بهذا الذى حققوه من وصول رسالتهم إلى الطرف الذى لا بد أن ينتبه إلى الحقيقة مهما كانت القوة كفيلاً له بالحماية والقوة.

كانت أمريكا تتمتع بنوع بارز من أنواع المنعة، أو الحماية الجيوبوليتيكية بفضل بعدها عن مسرح الأحداث والأزمات والحروب وبفضل حماية طبيعية جغرافية

يوفرها المحيطان اللذان يحيطان بها فإذا بالقواعد تتغير تماما، وإذا هجمات إرهابية فردية تهدد قدس الأقداس في العاصمتين الأمريكيتين الكبيرتين: عاصمة المال والاقتصاد، وعاصمة الدولة الفيدرالية.

كان النجاح الذي تمكن المحمول من تحقيقه أنه مثل وسيلة جديدة من وسائل (أو وسائط) الاتصال العولمي التي لا تخضع في ضبط إيقاعها وتعبيرها لأي قدر من السلطة الحكومية أو المؤسسية على عكس كل وسائل الإعلام الحكومية وغير الحكومية، ذلك أنه حتى مؤسسات الإعلام الخاصة والمملوكة لغير الحكومات تخضع لسياسات وتوجهات مسبقة ومحددة، ولا يمكن لها أن تنطلق في التعبير عن المشاعر النفسية الانفعالية والوقفية على نحو ما توفره خدمات الرسائل القصيرة على المحمول أو على شبكة الإنترنت.

في نفس اللحظة التي كانت الشبكات التليفزيونية العالمية توالى نشر ما حدث كانت الجماهير في أماكن كثيرة من العالم العربي توالى هي الأخرى نشر توقعاتها أو بالأحرى تمنياتها لما يجب أن يحدث، ولم تتوقف الرسائل بالطبع على توقع انهيارات كثيرة في مواضع أخرى من رموز القوة في الولايات المتحدة الأمريكية وولاياتها الكثيرة والكبيرة، ولكن التوقعات شملت أيضا سعر صرف الدولار، وحاملات الطائرات الأمريكية الدائرة في أنحاء العالم، ومعها بالطبع الأسطول السادس الأمريكي.

بعض المحللين السياسيين العرب كانوا متشاهمين أو بالأحرى متحسبين من موجة رسائل المحمول العربية في أعقاب أحداث سبتمبر ٢٠٠١، وكان للتحسب عندهم أكثر من سبب:

السبب الأول: أن هذه الرسائل كانت في النهاية تصب في مصلحة الاتهام القائل بإمكان أن يكون أسامة بن لادن أو أمثاله من تنظيمات عربية أو إسلامية هو المسئول عن هذه الأحداث.. فليس من الحكمة أن يسارع العرب بأنفسهم بتوريط بعضهم في المسئولية عن عمل ليس مشروعاً، حتى وإن كان مثيراً للإعجاب الفولكلورى.

السبب الثاني: أن هذه الرسائل كانت كفيلة بخلق نوع من «الإحباط التالي»، فهي قد تعبر عن حالة من النشوة وعن قدر من السعادة ولكن الإفراط في النشوة يقود إلى قدر من أحلام اليقظة غير القابلة للتحقيق، وبعدها يصبح أصحاب الرسائل أنفسهم عرضة للإحباط لأن ما توقعوه أو ما تمنوه لم يتحقق على نحو أو آخر.

السبب الثالث: أن الأيدي الصهيونية الخبيثة لن تترك هذه الفرصة لكي تثبت على العرب أنهم ينحازون بدون مبرر ضد مصالح الشعب الأمريكي فإن لم يكن ف ضد مشاعر الشعب الأمريكي ، ولا يمكن لأحد أياً من كان أن ينفي أن مثل هذه الرسائل كانت ضد مشاعر الشعب الأمريكي بالفعل!



في النهاية كانت رسائل المحمول بمثابة مشاركة شعبية في أحداث ١١/٩/٢٠٠١ ولكنها في المقابل لعبت أكثر من دور في مواقع الحدث نفسه .

الدور الأول: أنها استخدمت من داخل الطائرات لتنبية القواعد الأرضية إلى بعض ما حدث على متن الطائرات ،وعلى الرغم من أن كل هذه الاتصالات لم تفلح في إنقاذ أى شيء ، ولا في الإخبار بطبيعة ما حدث، إلا أنها مثلت من النهاية مصدراً لبعض المعلومات أو البيانات التي أفادت بعض جهات التحقيق .

الدور الثاني: أنها استخدمت من قبل أبطال الحدث في إتمام الاتصالات التي وضعت اللمسات النهائية على الترتيبات التي تمكنت في النهاية من إتمام الحدث على نحو ما حدث .

الدور الثالث: أنها مكنت الإدارة الأمريكية نفسها من سرعة الإنفعال بالحدث وسرعة تنفيذ ردود الفعل التي استجابت بها الإدارة الأمريكية لما حدث مهما كانت هذه الاستجابة بطيئة (في نظر البعض) أو سريعة (في نظر البعض الأخر) أو انفعالية (في وجهة نظر العموم) .

الدين في انتخابات الرئاسة الأمريكية(*)

نحن نعرف أن الولايات المتحدة الأمريكية دولة علمانية ما في ذلك شك، لكننا جميعا نعرف أيضا أن العملة الأمريكية تحمل كما أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب ، شعارا يكاد أن يكون إسلاميا في أصله وهو، نحن نثق في الله، .

ونحن نعرف أيضا أن السياسة الأمريكية لا تعنى إلا بالمصلحة، سواء على المستوى القريب أو البعيد، ولكننا عرفنا أيضا من واقع التاريخ الذي مر أمام أعيننا وعشناه أن المصلحة كثيرا ما تتعلق باحترام الدين أو الخضوع له، أو إمضاء تعاليمه وتعليمات الذين يدينون به .

وعلى مدى الانتخابات الأمريكية المتكررة كانت هناك مجموعة ثابتة تتعلق بأصوات الجماعات العرقية المختلفة، وربما لا نعرف أن الرؤساء الديمقراطيين يرتبطون بالكاثوليكية ويفوزون بأصوات الكاثوليك، بل إن هذه القاعدة تمتد في تأثيرها إلى الأقلية الأسبانية على سبيل المثال (وهي بالمنطق كاثوليكية) وهي كبرى الأقليات في الولايات المتحدة، وتبلغ أصواتها حوالي ٥% من أصوات الناخبين الأمريكيين .

(*) نشرت فكرة هذا الفصل في مقال في جريدة أخبار اليوم (٢ سبتمبر ٢٠٠٠) قبيل الانتخابات الرئاسية الأمريكية التي أجريت عام ٢٠٠٠ .

وفى المقابل إن هناك ارتباطا تقليديا بين البروتستانت والحزب الجمهورى .

وربما لاحظ المتابعون للحملتين الانتخابيتين الأمريكيتين أن المرشحين الرئيسيين بوش وآل جور، قد حرصا على أن يضمنا كلمتيهما الرئيسيتين فقرة باللغة الأسبانية، بكل ما يرمز له هذا المعنى، وبكل ما ينم عنه قبل ذلك .

ونحن نظن أن المجتمع الأمريكى كله يتحدث اللغة الإنجليزية الأمريكية، لكننا ربما نفاجأ حين نعلم أن اللغة الإنجليزية ليست هى اللغة الأولى لأكثر من عشرين مليون مواطن أمريكى، فهناك تسعة ملايين لغتهم الأولى الأسبانية، وهناك ستة ملايين لغتهم الأولى هى الألمانية، وخمسة ملايين لغتهم الأولى الإيطالية، وهكذا.. ولا يتعارض هذا أبدا ولن يتعارض أبدا مع وحدة المجتمع الأمريكى وتماسكه، لأن هذه الوحدة استقرت على أساس فكرة المصلحة ووضع هذا النص فى قانون الجنسية وفى دستور الولايات المتحدة منذ زمن بعيد .

وعلى الرغم من هذا فإن المتأمركين المصريين يجدون لذة فى سعيهم التخريبي إلى إثارة كل ما هو ممكن، وكل ما هو غير ممكن فيما يتعلق بأقليات يزعمونها ويؤلفونها ويخلقونها خلقا من أجل تدمير مجتمعهم بفيروس الأقليات.. نسأل الله لهم الهداية، ولوطننا وشعبنا الحفظ والصون الذى من علينا به الله من قديم الزمان .



وكما أن هناك ثوابت فى الانتخابات الأمريكية الرئاسية والتوزيع التقليدى لأصوات الطوائف بين الحزبين الكبيرين فإن هناك متغيرات، ومنها على سبيل المثال أصوات اليهود، وقد فزع كثيرون منا حين أعلن آل جور، عن اختيار السيناتور اليهودى ليبرمان بمثابة نائب له فى انتخابات الرئاسة الأمريكية، ويقدر ما فزع الكثيرون فقد وجدت فى هذه النعمة الظاهرة مصدر نعمة كبرى، ذلك أنه لو كان الرئيس الأمريكى فى أى وقت من الأعوام الخمسين الماضية يهوديا لكانت مشكلة فلسطين بما فيها القدس قد وصلت إلى الحل، ذلك أن اليهودى يعرف وجه الحق فى

القضية تماما وهو يساوم قدر ما يساوم بينما هو فى قرارة نفسه مدرك للثوابت، ولهذا فإن بوسعه أن يتخلى عند اللزوم عن كل ما يدعيه حقا وهو يعرف أنه باطل، أما غير اليهودى مهما كان شجاعا فإنه يظل خائفا من اليهود ومزايدة غيره (من المتشيعين لليهود والخائفين منهم) عليه من أجل اليهود.

وهكذا فإنى لا أعتقد أن وجود يهودى فى موقع مؤثر فى حكومة الولايات المتحدة يفيد إسرائيل ويضير القضية الفلسطينية (أو العربية)، لكنى أعتقد فى العكس، ودليلى على هذا فى هنرى كيسنجر نفسه وهو صهيونى واضح الصهيونية، غير منكر لها، ومع هذا فقد كان أسرع الساسة الأمريكين فى إزالة أو هام إسرائيل فيما يتعلق بما وضعت عليه أيديها من الأراضى العربية...

أقول هذا بوضوح وبساطة، وأعرف أن كل القراء يدركون هذه الحقيقة التى أصبحت الآن واضحة كالشمس، مهما زعم كيسنجر (أو زعم له الحاقدون على السادات من الفيروسات الصحفية المعروفة التى أذاقتنا وشربتنا الضلال والهلاك طيلة عهد كامل) من أنه حقق لإسرائيل ما لم يحققه غيره، وأنه استطاع إنقاذها من الدمار فى عام ١٩٧٣، وأنه أخذ السادات على حجره، على حد تعبيره، أو أن السادات اندفع من تلقاء نفسه للجلوس على حجره.

وفى إطار هذه الفكرة فإنه يكفينى أن أنبه الأعلام المتشائمة من ليبرمان، إلى أن لهذا السيناتور اليهودى على سبيل المثال موقف واضح يجاهر بالتحفظ على نقل السفارة الأمريكية إلى القدس.



من ناحية أخرى فإنه ليس من شك أن الوعى العربى والإسلامى فى الولايات المتحدة الأمريكية أخذ فى الاطراد.

ولست أحب أن أردد نظرات المتشائمين الذين ينظرون إلى موقف أهلينا فى الولايات المتحدة الأمريكية فيما مضى من عصور ومن انتخابات، لكنى أكاد أبشر

بأنه بدءاً من انتخابات الدورة القادمة في ٢٠٠٤ سيكون للصوت العربي وللصوت الإسلامي تأثير محسوس، وسيُخطب ود العرب والمسلمين بطريقة واضحة.

ولست أحب أن أتطرق إلى الأسباب التي أخرت تصاعد وتنامي قيمة العرب والمسلمين في المجتمع الأمريكي، لكنني مع هذا لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أذكر للقراء أن صورة الضجيج غير المحسوب في الخطاب السياسي المصري في الستينيات وأصداء هذه الصورة كانت قد أساءت بالفعل إلى صورة المصري في العالم المتحضر، بما كان متوقفاً أن يمتد لقرن كامل من الزمان لولا أن الله سلم.

ولست أحب أن ألوم أحداً بقدر ما أود أن أفخر وأعتز بكل الجهود الإسلامية والعربية التي تضافرت خلال العقدين الأخيرين من الزمان حتى طورت صورتنا في الوجدان الغربي، وهي جهود موفقة رغم صعوبة الهدف، ورغم ظننا أنها تباطأت أو لم تصل إلى ما كان يجب أن تصل إليه.



ولست أتمنى على الله إلا أن يهيئ العقل للمجموعات التي تسمى نفسها «أقباط الهجر» من أمرها رشداً يكفل لها النقد الفعال بدلاً من نعمة النعمة المتزايدة، سواء على الماضي أو على الحاضر أو على المستقبل.

وظنى أن النعمة على المستقبل مما لا يليق بمتدين أو مثقف.

أما النعمة على الحاضر فهي مما لا يليق بقادر أو مصلح.

وظنى كذلك أن الروح التي تحكم كل أقباط ومسلمي المهجر بمن فيهم هؤلاء وغيرهم تتسم بالثقافة والتدين والقدرة والإصلاح..

أما النعمة على الماضي فأمرها موكول إلى العظة (يقوم بها المتدينون) والمغفرة (يجود علينا بها الله جل في علاه).

الإسلام في مواجهة العولمة

- التقاليد الإسلامية في عصر العولمة
- العولمة في الطب والصحة
- هل النمو الإسلامي في ماليزيا هو المستهدف؟
- فرنسا ومحنة العنصرية الجديدة

التقاليد الإسلامية في عصر العولمة

للمسلمين أعياد دينية ، ولكل وطن من أوطانهم أعياده الوطنية ، ولكثير من المجتمعات المحلية أعيادها المحلية أيضا .. ومع هذا فإن المسلمين بحكم معيشتهم في وسط العالم لا يمانعون في الاحتفال بكثير من الأعياد الغربية حتى ما هو مبتكر منها كعيد الحب على سبيل المثال .

ومع هذا فإن بعض المجتمعات الإسلامية تصبغ هذه الأعياد بما تراه كفيلا بترويج فكرة العيد نفسه .

وعلى الرغم من هذا التوافق الإسلامي مع «العالمية» أو مع روح العولمة فإن الصحافة الغربية منذ وقوع أحداث ١١ سبتمبر لا تكف عند كل فرصة متاحة عن الحديث عن عدم قابلية العرب والمسلمين للتكيف مع كثير من تيارات العولمة الخفيفة ، ومن ثم يتصاعد الحديث عن صعوبة تقبلهم لروح العولمة نفسها ، ومن ثم تصاغ النتائج التي تصورهم خارج «التاريخ القادم» من ناحية ، أو وهم يرفضون سياقه من ناحية أخرى .

ومن المنطقي - وإن بدا هذا غريبا على فهمنا بعض الشيء - أن هذه الملاحظة

سترتبط بأى صورة من صور الرفض العربى (فى منطقة ما ، وفى زمن ما) لتقليد أمريكى أياً ما كان هذا التقليد ، وسترتبط ظاهرة الانتقاد بظاهرة الرفض وتفسيرها على النحو الأكثر بعداً عن الحقيقة أكثر مما ترتبط بفهمها فى إطار أن يكون هناك تقليد عربى مناقض أو مناف أو معاكس لما هو موجود فى العالم الغربى..

بعبارة أخرى فإنه فى هذه الظروف تبرز حقيقة أن الحديث عن الفشل فى المجازة يتمتع بالفرصة المتاحة فى أن يتفوق ويتغلب على الحديث الطبيعى والمعتاد عن اختلاف أو تفاوت الطباع والعادات.

وعلى سبيل المثال فإننا لم نفاجأ بالصحافة الأمريكية منذ شهور وهى مشغولة أو مهمومة بقضية ما تسميه «مخ عىء الحب فى المملكة العربية السعودية»، ويتكرر العزف على هذا الانتقاد بصور متتابعة وتصويرات عامدة إلى إظهار التعجب من ناحية، والحسرة على ما يصور على أنه من حقوق الإنسان من ناحية أخرى، مع أن الأمر الطبيعى، بحكم المهنة، هو أن تنصرف الصحافة الاستطلاعية وتنشغل بتغطية وعرض ومناقشة وتأمل أنماط الحياة العاطفية التى تحفل بها الحياة الإنسانية والنشاط الطبيعى فى مثل هذه البيئة التى شاء لها القدر أن يخلد تراثها الإنسانى فى العواطف المشبوبة فى صورة فن رفيع هو فن الشعر العربى الذى أتىح له الخلود على مدى السنوات، بل وازداد شيوعه وذىوعه.



هكذا يصبح المرء المحايد (من مثقفى الصين أو الهند على سبيل المثال) مذهولاً حين يجد مثل هذا الانتقاد صادراً عن هؤلاء الذين امتهنوا العواطف الإنسانية وحولوها قدر إمكانهم إلى آليات وتيرىة ، وماديات مجردة، ويجد مثل هذا المرء المحايد هؤلاء الصحفيين الداعين إلى العولمة أو الأمركة وهم يتعالون بلا مبرر على

شعوب تسامت بالحب فى كل صورته، وخذلته بأرقى الفنون، بل وضحت من أجله بالأرواح والحيوات وبكل ما تملك.

ويعجب الإنسان حين يستعيد ما وعته ذاكرته من آثار الأدب الأوروبى حيث يجد أن أسلاف الغربيين المعاصرين كانوا معجبين أشد الإعجاب بالتقاليد الشرقية للحب، وكانوا يعتبرونها بمثابة «منتهى الأمل»، «وقمة الإعجاب»، وكان تقديرهم هذا يدفعهم إلى إثراء تجاربهم الإنسانية على نحو رفيع من خلال التأمل والمحاكاة والتطعيم.. أما اليوم فإن بعض الغربيين المعاصرين فى ظل إحساس خاطئ بالاستعلاء بدأوا يشغلون أنفسهم ويشغلوننا معهم فى التفكير المتكرر وفى البحث الجاد عن مبررات أياً ما كانت للهجوم على عدم السماح بالاحتفال بعيد الحب أو... للسعادة بانتشار الاحتفال بعيد الحب.



ومع هذا فإن هناك عدداً من الملاحظات المهمة التى يجدر بنا أن نشير إليها فى ظل هذه الأحاديث القابلة للتكرار:

(١) الملحوظة الأولى هى أن أسلافنا المعاصرين، من رجال الصحافة والفكر، كانوا فيما يبدوون يتحسبون لهذا اليوم فإذا بهم فى تقليدهم للأعياد الغربية يختارون أياماً مغايرة للأيام التى يحتفل بها الغرب بهذه المناسبات، فعيد العمال فى مصر يوافق أول مايو بينما هو فى الولايات المتحدة فى شهر آخر، وكذلك الحال فى أعياد كثيرة منها أعياد الأم، والطفولة، بل وعيد الحب نفسه، وقد اختار له المغفور له الأستاذ مصطفى أمين يوماً فى شهر نوفمبر بينما هو فى العالم الغربى فى شهر فبراير.

(٢) إن اختيار أيام الأعياد فى المجتمع العربى خضع أيضاً للمحسوبية ولبعض التوجهات السياسية الفجة، وعلى سبيل المثال فقد اختير يوم عيد الطفولة ليكون

هو ميلاد الرئيس جمال عبد الناصر الذى بدأ الاحتفال بعيد الطفولة فى عهده، ومن الطريف أن أحمد لطفى السيد ولد فى نفس اليوم ولكن أحدا لم يكن على استعداد لأن يذكر مثل هذه الحقيقة فى يوم عيد الطفولة، مع أنها كانت كفيلة بتدعيم اختيار هذا اليوم كعيد للطفولة، ويقائه فى نفس التاريخ إلى ما بعد مرحلة عبدالناصر، ولكن أحدا من الذين يكتفون اهتمامهم بالحاضر لا يعطى اهتماما مماثلا بالمستقبل.

(٣) إن المقتضيات (والخطط) الأيديولوجية نفسها كانت تراعى فكرة التوفيق بين الاحتفالات الأممية وبين النزعات الوطنية، وليس أدل على هذا من أن الحركة الشيوعية الدولية قد أرضت طموح الشباب المصرى المنضم لها بأن اختارت ليوم الطلاب العالمى أحد الأيام المهمة فى وجدان الحركة الطلابية المصرية فى الأربعينيات، وكان هذا الاختيار يعزز ثقة أبناء هذه الحركة فى أدائهم، وفى الوقت ذاته يعزز ثقة هؤلاء فى تقدير هؤلاء الأيديولوجيين الأجانب، أو العالميين، لجهادهم الوطنى.

(٤) مع هذا كله فإن أحداً من الذين بدأوا يثيرون هواجس الأمركة والعولمة تجاه تقبل مجتمعات الشرق أو الإسلام للروح الجديدة تغافلوا عن أهم الملحوظات فى هذا المجال وهى ملحوظة بلغ عمرها حوالى ألفى عام، أقصد تلك المرتبطة بوجود تاريخين لعيد الميلاد الجديد، أحدهما قبل الاحتفال برأس السنة بأيام، والآخر بعدها بأيام، بينما يعتقد غير المعنيين بهذين الاحتفالين من غير المنتمين للمسيحية أن يوم رأس السنة نفسه هو الأولى بأن يكون اليوم المخصص للاحتفال بهذه المناسبة..

ولهم فى هذا منطقتهم الواضح بالطبع.

وفى جميع الأحوال فإنه يصبح من المسلم به أن على المجتمعات الشرقية أن تفكر بجدية فى أن تقدم كل ما يصور تقاليدها ويعبر عنها فى صورة واضحة المدلول محملة بالمعنى ومحاطة بالاعتزاز بها، داعية الآخرين إلى أن يأخذوا هم أيضاً بها ويستفيدوا منها على نحو يكفل مزيداً من الانطلاق إلى آفاق إنسانية رحبة تفيد من تجارب زمنية ممتدة، وفى هذا الصدد فإن فى وسع مفكرينا من ذوى الاتصال بالحضارة الغربية أن يتبنوا الدعوة إلى تعميم الاحتفال بعيد الأضحى المبارك باعتباره رمزاً متميزاً لمعلم مهم من معالم حياة أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه أفضل الصلاة والسلام الذى تجتمع عنده الديانات السماوية الثلاث.

العولمة فى الطب والصحة

تظل العولمة فى الطب صعبة التحقيق على الرغم من أن الطب كان ولا يزال أكثر المجالات الإنسانية التى أمكن تحقيق نجاح عولمى فيها، ربما بعد الإعلام مباشرة، وربما قبله... وليس أدل على هذا الزعم من أن كل العالم يستعمل الأسبرين والبنسلين والسلفا حتى وهو يحارب بعضه بعضا، .

يبدو لبعض الناس ومعهم الحق، أن الطب هو أكثر النشاطات الإنسانية ترحيبا بالعولمة.. لكن يبدو لى أن هذا نوع من الوهم الكبير.

يحكى أن طبيبا مسلما عظيم الشأن ألف كتابا مرجعا فى الطب، فجعل عنوانه «أمراض الأغنياء وأمراض الفقراء»، لا يعنينا العنوان وإنما تعنينا الفكرة فى أن الغنى فى حد ذاته يكون عاملا مشجعا على انتشار بعض الأمراض فى طبقات الأغنياء، وكذلك يكون الفقر.

ولعل المثل البارز فى هذا الصدد هو مرض النقرس الذى تزداد فيه نسبة حمض

البوليك ويصبح المصاب بهذا المرض فى حاجة إلى الإقلال من اللحوم الحمراء على وجه خاص وتعاطى مواد كفييلة بعلاج هذا الحمض (الكولشسين) ويسمى هذا المرض فى أوساط كثيرة بمرض الملوك.

المثل البارز فى الناحية الأخرى هو مرض فقر الدم الأنيميا حيث ينتشر فى المجتمعات والعائلات الأقرب إلى الفقر.

وليس من شك أن تأثير البيئة نفسها فى انتشار كثير من الأمراض شىء أساسى ومعترف به من قبل الأطباء جميعا، بل والناس العاديين. ومن الأمثلة على هذا الأمراض المنتشرة عن طريق العدوى بالطفيليات المختلفة، وهى أمراض تخلو منها المجتمعات المتقدمة. كما أن انتشار الحمى الروماتيزمية لا يحدث إلا فى بيئات معينة حيث الرطوبة والظلام والفقر.. إلخ.



ليس هذا موضوعنا بالتحديد، وربما أن موضوعنا بالتحديد هو ما غير هذا بالضبط: أى كيف يمكن أن يكون هناك عامل مشترك بين كل جوانب الصحة، بصرف النظر عن البيئة.

بعبارة أخرى هل يمكن تعميم أنماط صحية على مستوى العالم على النحو الذى يمكن فيه تعميم أنماط إعلامية أو ثقافية أو تجارية أو سلوكية!!؟

الجواب سهل.. وربما هو سهل جدا، لكن التنفيذ صعب.. وصعب جدا.

وسنبداً بالجانب الأسهل وهو تجربة العالم الحديث فى مجال الدواء، وسنكون حريصين على تجريد الفكرة بقدر الإمكان حتى تنجو الفكرة نفسها من أسر الحالات الخاصة والأوضاع المتميزة.

ولنبداً بأكثر الأدوية استعمالاً وهو عقار الأسبرين، نحن نعلم أنه اكتشف فى إحدى

البلدان، وأنه طور في غيرها، وأنه استخدم على نطاق واسع في غير هذه وتلك، وأنه الآن يصنع في كل مكان وتحت أسماء مختلفة، وأنه في القطر الواحد من أقطار العالم يوجد أكثر من مصنع (أو بالأدق أكثر من خط إنتاج) للأسبرين، وفي مصر على سبيل المثال يوجد الريفو، والألكسوبرين، والأسكين.. إلخ.

ما شأن العولمة بمثل هذا العقار؟

السؤال بسيط ولكن إجاباته متعددة الأنماط:

□ النمط الأول: لو أن إحدى الشركات العالمية عابرة القارات متعددة الجنسيات فكرت وخططت وقررت حتكار إنتاج الأسبرين في العالم كله.. هل تنجح؟ أم لا؟ الإجابة أنه بإمكانها لو أنها صممت! لكن هل يساوى هذا الاحتكار ما سوف يدفع من أجله؟

هنا قد نجد أنفسنا أمام صورة من صور العولمة مرتبطة بتفكير مؤسسات في الأمر من خلال النظر إلى مقدار ما يتحقق لها من أرباح أو منفعة نتيجة قيامها بهذا الدور، وهو ما يطلق عليه في الاقتصاد فعالية التكاليف، وتكون النتيجة بعد مناقشات وممارسات أن تزدهر العولمة حين تكون العولمة نفسها مكسبا للذين يرفعون شعارها، وتتوقف العولمة نهائيا حين لا تكون مصدرا لهذا المكسب.

هنا نجد أنفسنا مرة أخرى نتصور العولمة كشعار من شعارات الإقناع والترويج، وليس كمبدأ من مبادئ حياة جديدة أو نظام عالمي جديد!

وربما يصدق القول إنه ليس فيما ذكرنا جديد من ناحية المثل، لكن ربما كان المهم هو أن التفكير في النمط المترتب (تجاريا) على أسلوب التفكير بالعولمة يفتح المجال أمام آفاق متعددة وكثيرة جدا من البدائل في صياغة موقف العولمة من حياة الناس... وموقف الناس من العولمة نفسها.

لعل النمط الثانى يوسع من آفاقنا خطوة أخرى.

□ النمط الثانى: يدرس الناس الطب فى مختلف بلدان العالم الغربى (وبالتالى فى كثير من بلدان العالم المرتبط بالعالم الغربى) من منطق الطب الكيمىائى الذى يعنى بأخلاق الجسم وبيولوجيته والمكونات الكيمىائية وآثارها.. وفى بعض مجتمعات ليست قليلة التعداد لا يزال الدرس الطبى للجسم البشرى يجرى بطرق أخرى.. وعلى سبيل المثال فإن الطب الصينى يعتمد على نظرية النقاط المعينة المحددة فى جسم الإنسان.. كذلك فأنا نلم بفكرة ما عن اليوجا والتأثير الروحى والتعودى والنفسى.. كما نلم بفكرة أخرى عن «طب الحكمة» كما يسمونه فى باكستان.

كيف يمكن إذاً أن تكون هناك عولمة فى هذا الصدد؟

هل يكون هذا بالاعتراف المتبادل وذلك بأن تخصص الكليات التقليدية فى القاهرة وكمبردج وهارفارد قسماً فرعياً للطب التقليدى أو الشعبى أو القديم، وتسمح العواصم الكبرى بل والمدن الكبرى فى الحضارات الآسيوية والإفريقية بافتتاح مستشفيات أمريكية أو ألمانية وممارسة الطب فيها؟ ..

إذا كان الأمر كذلك فإن سياسة الاعتراف المتبادل قائمة منذ زمن بعيد.. لكنها لم تنجح ولن تنجح أبداً فى صياغة نوع من أنواع العولمة وصبغ الممارسة الطبية بهذا النوع المختار بدقة أو بغير دقة.

□

هل يمكن لنا الآن أن نتوقف لنقول إنه من المستحيل أن تتطرق العولمة إلى «الأساليب» التى يمارس الناس بها حضارتهم فتغيرها..

قد يبدو هذا القول صحيحاً جزئياً، لكن التاريخ علمنا أن التطور الذى أحرزته كثير

من الحضارات لم يكن إلا نتيجة طبيعية وفورية لاتصالها بحضارات أخرى، عن طريق لقاءات الحروب ولقاءات السلم.

ولعل المثل البارز في مهنة الطب هو ذلك التطور الذي حدث للطب الأوروبي في أعقاب (بل في أثناء) الحروب الصليبية، ويكفى أن نقرأ ما يرويه أسامة بن منقذ، عن ممارسة أطبائهم للطب لنعرف أنه لولا اتصالهم بالعرب والمسلمين ما أتيج لهم بعض هذا التقدم، ألم تر إلى ذلك الطبيب الذي شق رأس المريض ليخرج منه الشيطان، وأخذ يدعك المخ بالملح!!

إذا كانت العولمة تتيح اتصالا مكثفا بأسرع مما كان الاتصال متاحا من قبل، فإنها بلاشك سوف تضاعف من حجم التأثير الحضارى الناشئ عن الاتصال والتواصل الإنسانى - الحضارى، وسوف تتيح لآليات التأثير والتأثر أن تترك أثارا غير محددة فى سياسات التطبيب والعلاج على مدى قصير جدا.

وهنا بالضبط يمكن لنا أن ننتبه إلى حقيقة أن العولمة فى الجانب الأكبر والأكثر تأثيرا منها مرتبطة - وهذا حق - بوسائل الإعلام، وأن النجاح الإعلامى فى تحقيق هذا التواصل هو العامل الأكثر تأثيرا ونجاحا فى بث أو نشر العولمة فى مجال الصحة والعلاج لتوحد من كثير من أنماط السلوك والاتجاهات الاجتماعية، بل والنفسية فى مرحلة سابقة!



كلنا يعرف أن وسائل الإعلام المختلفة قد أثبتت من قبل نجاحا فائقا فى تحقيق رسائل تنموية مهمة تتعلق بالتوعية الصحية والإعلام الصحى، وإلى الحملات الإعلامية (المخططة جيدا) يعزى كثير من النجاح فى مكافحة ومقاومة كثير من الأمراض والأوبئة، وهذا كله حق لا مرأى فيه.

ولكن على الجانب الآخر فإن نجاح وسائل الإعلام فى فرض سياسة صحية عالمية

لا يمكن أن يتحقق بنفس السهولة لأسباب كثيرة، لعل أهمها هو افتقاد الآليات الكفيلة بتحديد المسئول عن التمويل، فضلا عن إتمام عملية التمويل نفسها، وربما تثور في هذه اللحظة مشكلات مرتبطة بتحديد قدر الاستفادة كل مستفيد من نجاح الحملة سواء أكان الأكثر استفادة هو الدولة أم الشعب أم الدولة المجاورة أو الشعوب المجاورة، دعك من أصحاب العمل وأصحاب رؤوس المال.

وعلى سبيل المثال ربما يسأل كل هؤلاء سؤالا وجيها عند بدء دعوتهم للمشاركة، ومع أنهم يعرفون إجابته فإنهم لن يتورعوا عن أن يسألوه: أليس من واجب الهيئة الصحية العالمية (منظمة الصحة العالمية) وهي هيئة قائمة وذات كيان بيروقراطي ضخم ومنتشر في جميع أرجاء الدنيا، أليس من واجب مثل هذه الهيئة أن تتولى التمويل أو تدبير التمويل لفرض (أو ترويج) سياسة صحية ما؟

وإذا ما وصلنا إلى هذه النقطة، فإننا نكون قد وصلنا إلى حيث يأتي الصراع التقليدي المرتبط بالعقائد.

ولنأخذ مثلا واضحا جدا وهو قضية تنظيم الأسرة، فالرؤى مختلفة تماما، وبعض العقائد تكاد تناقض عقائد أخرى، بل وعلى مستوى أكثر تعقيدا من العقائد فإن السياسات الاقتصادية والاجتماعية نفسها متعارضة في أهدافها (ويكفى على سبيل المثال أن نشير إلى مصلحة الفلسطينيين في داخل إسرائيل في الإكثار من الإنجاب) ..

هل يمكن ، والوضع هكذا ، أن نفرض على العالم اتفاق جناتلمان بحدود قصوى للتزايد أو النمو السكاني؟

تصعب الإجابة بنعم.

ومع هذا فإن الأمل في تجاوز الإجابة بـلا، لا يزال قائما.

ونعود إلى ما بدأنا به حين ضربنا المثل بالدواء، وربما تصبح الأسئلة هنا ذات

مضمون:

□ هل يمكن التجاوز عن فرض رقابة محلية على الدواء المستورد؟

□ هل يمكن تعميم القيم الأخلاقية على ممارسة صناعة الدواء؟

نظريا يمكن، وعمليا لا يمكن عولمة مثل هذه المجالات حتى على مستوى الموظف المنوط به منح التصاريح الخاصة بالاستيراد أو السماح بالاستعمال أو التعاطى أو التداول أو التجارة.

وهناك أنماط كثيرة للفهم العقدى (نسبة إلى العقيدة) لطبيعة ووظيفة الدواء، بل إن المنفعة الشخصية قد تكون في لحظة من اللحظات بمثابة عائق - ولو مؤقت - أمام انتشار أحد العقاقير، لنذكر على سبيل المثال موقف وزير الصحة في إحدى البلدان الإسلامية الذي خاض حملة شرسة ضد عقار الفياجرا انطلق بها إلى أبعد مما يحتمله عقار واحد، ونشأت صدامات حقيقية مع صناع الدواء وموزعيه، بل ومع الرأي العام الذي كان متعطشا إلى إيجابيات ذلك العقار الممنوع.

□

ربما يجوز لى وأنا أقترب من النهاية أن أمضى الآن إلى نقطة أكثر بعدا عن مناطق الاختلاف النفعى أو القيمي، وهما العنصران اللذان تناولتهما حتى الآن.

ولنقفز إلى العنصر الثالث وهو العنصر الأخلاقى.

نحن نعرف أن الأخلاقيات لا تزال أحد الحواجز بين الدول والقوميات بحكم موروثات تاريخية قديمة وحديثة على حد سواء.

□ ترتبط الأخلاق بالقيم لاشك في ذلك.

□ وترتبط كذلك بالمنفعة... لا خلاف على ذلك.

ولكنها تبقى بمثابة جانب ثالث مختلف عن الجانبين الأولين.

لنتأمل نظرة المجتمعات إلى الجسم البشري، كان الرومان يحثون أطفالهم منذ مرحلة مبكرة على دراسة (وفحص) هذا الجسم والاستمتاع به، بل ومعرفة أعضاء الجنس الآخر.

وفي هذا الصدد سأنتقل مباشرة إلى العصر الحديث وسأجأ إلى قصة عاصرتها بنفسى.. فقد فوجئت ذات يوم بزميل أستاذ فى كلية طب مصرية يطلبنى تليفونيا من الخارج وهو منزعج، وسأختصر القصة لأروى للقارئ مباشرة أن زميلى هذا لم تكن عنده أدنى فكرة عن هذا التوجه [الرومانى] القاضى بالاستمتاع والمعرفة حتى ذهب صباح ذلك اليوم ليتابع أمورا روتينية جدا تخص ابنته فى المدرسة الابتدائية بعد أسبوع واحد من التحاقها بها فى إحدى العواصم الأوروبية، وحين وجد البنات والبنين جميعا فى حمام السباحة عرايا تماما بدون أى ملابس.. انتابته موجة عارمة من الدهول.. وقد استنكر بالطبع أن تشترك ابنته فى مثل هذا، وردت عليه الناظرة باحترام شديد: إن هذه الحصاة حصاة دراسية أساسية فى المقرر للتعرف على الجسم البشرى عاريا تماما، سواء فى ذلك البنات والابن!!

لهذا السبب وفى ظل حيرة عميقة تالية للدهول المفاجئ اتصل بى هذا الزميل.. ومن البدهى أنه كان فى حاجة إلى مشاركة عقلية - وجدانية فى الحالة التى وجد نفسه يواجهها.

وقد رويت له بتوسع عبر التليفون ما رويته للقارئ باختصار عن عقيدة وسلوك الرومان تجاه الجسد البشرى.. وبالتأكيد فلم يكن فى وسعى - ولا كان مطلوبا منى - أن أقنعه بوجهة نظر المجتمع الجديد، لكن كان فى إمكانى أن أشرح له الخلفيات الثقافية

والحضارية بكل دقة، وقد فعلت ونجحت، وأضفت إلى هذا بعض الحديث عن التوجهات التربوية وكيف تُبنى - الآن - على مستوى المناهج الدراسية ..

وكان زميلي ممتنا بأكثر مما أستحق، وكان سعيداً أن اختياره لهذا التواصل معي حقق له بعض هدوء النفس .. لكنه - وهذا طبيعي - ظل يعترف بأنه لم يفهم حتى هذه اللحظة مثل هذا المغزى ولا المعنى التربوي فيما وراءه (وأظن أنه ليس من حقي أن أتحمز إلى رؤيته - بحكم تربيتنا المشتركة - وأقول: ومع حق)، ولكن إذا كان مثل هذا المستوى الفكري والعقلي [الأستاذ متميز في الطب] غير قادر على استيعاب هذا النمط من تفكير الآخرة الذي قد يقدر له أن يسود في الحياة الطبيعية الفسيولوجية، فما بالنا في الأمراض؟

ربما بدا السؤال عميقاً .. لكنه بكل تأكيد غير عقيم.



وربما أذكر الآن مثلاً أخيراً كثيراً ما أستشهد به لطلابي ولزملائي كمدخل لفهم الممارسة الخلقية لمهنة الطب.

نحن نعرف حكم الحضارات المختلفة في الإجهاض، هناك من يبيحه مطلقاً، ومن يحرمه مطلقاً، ومن يجيزه في بعض الأحيان دون البعض الآخر، لكن ماذا عن الطبيب النوبتجي المسئول في قسم النساء والتوليد؟ هل يكون من حقه أن يفرض معتقداته هو حين يُطلب منه أداء هذه العملية؟!

الإجابة تختلف حتى في هذه الجزئية المرتبطة بممارسة مهنية مطلقاً، بالطبع فإن السلطات الصحية في بعض الدول (ومنها بريطانيا على سبيل المثال) تترك للطبيب حق الامتناع عن الإجهاض إذا كان هذا يتعارض مع عقيدته.

وهناك سلطات أخرى في دول أخرى لا تسمح لمثل هذا الطبيب (المسلم أو الكاثوليكي على سبيل المثال) بأن يمتنع عن أداء مهنة مطلوب منه أداؤها خاصة أن

القوانين تسمح للمواطنين بطلب هذه الخدمة الطبية لأن الإجهاض مباح بالفعل في قانون الدولة!!

وفي هذه الحالة فإن الطبيب الممتنع عن إجراء الإجهاض [لمن تطلبه] لا يعامل إلا كما يعامل من امتنع عن إنقاذ حياة مريض من الموت، مع أنه - وبالمفارقة - في هذه الحالة [وطبقاً لعقيدته هو] كان يود لو امتنع عن إزهاق حياة إنسان.

هذا المثل الذي قدمته لتوى قد يكون مزعجاً لبعضنا بعض الشيء، وربما يكون مع قدر من التأمل أكثر إزعاجاً من قصة حمام السباحة، لكنه يتكرر الآن، لا مع اختلاف الحضارات، بل في داخل شعوب ترتبط بالحضارة الإسلامية وبالمداهب السنية نفسها، وربما أدرك القراء أنى أشير من بعيد إلى الآراء المختلفة في نقل الكلى على سبيل المثال.



وأنتهى بما بدأت به:

تظل العولمة في الطب صعبة التحقيق على الرغم من أن الطب كان ولا يزال أكثر المجالات الإنسانية التي أمكن تحقيق نجاح عولمي فيها، ربما بعد الإعلام مباشرة، وربما قبله...

وليس أدل على هذا الزعم من أن كل العالم يستعمل الأسبرين والبنسلين والسلفا حتى وهو يحارب بعضه بعضاً.

هل النمو الإسلامى فى ماليزيا هو المستهدف؟

حين اجتاحت الأزمة الاقتصادية عدداً كبيراً من الدول الآسيوية سواء فى ذلك النمر وأشباه النمر والسابقات على النمر (كاليابان نفسها) لم يكن يدور بخلد أحد أن تنتهى الأزمة بالصورة التى انتهت إليها ، وأن تنحصر الآثار الاجتماعية للأزمة فى دولتين بعينهما هما أندونيسيا وماليزيا وهما الدولتان الإسلاميتان البارزتان فى مجموعة الدول الآسيوية التى شهدت التقدم السريع فى الفترة السابقة .. ولكن حدث ما حدث وانحصرت الآثار الاقتصادية فى الاقتصاد فى كل هذه الدول ، بينما فجرت الأزمة الاقتصادية أزمات اجتماعية وسياسية فى البلدين الشقيقتين .

ومن العبث أن يحاول أى انسان أن ينفى وجود جذور وبذور للمشكلات الاقتصادية أو النقدية التى حدثت فى الدولتين ، ولكن من العبث أيضاً أن يتجاهل أى انسان أن قيم الإسلام قد ووجهت بضربات ذكية وخبيثة فى ذات الوقت فى طبيعة الصراع الذى دار ويدور فى البلدين .



فى ماليزيا لعبت جماعات المصالح دوراً مأكراً وخطيراً فى تأجيج الصراع فى الضمير الإسلامى لكل من الحاكم (فى هذه الحالة هو رئيس وزراء ماليزيا محاضر

محمد ، رغم وجود سلطان الماليزيا بالتناوب) وللشعب بل ولكل فرد من أفراد هذا الشعب .

ومن أعجب ما يمكن أن الصراع الذي أدير باقتدار لكي يقود إلى التمزق (الذي لم يحدث ولكنه قابل للحدوث في أي وقت) كان بين قيمتين اسلاميتين رفيعيتين وأصيلتين ، فطهارة السلوك الشخصي أمر مندوب ومستحب من المحكومين ومن الحاكم من باب أولى ، وفي ذات الوقت فان القيم الإسلامية تأبى انتهاك حرمة الاشخاص (المحكومين والحاكمين من باب أولى) من أجل التجسس على سلوكهم حتى لو كان مشكوكا في أن يكون مشيناً .

ولأن الحكم في بداية هذا الصراع كان لضمير رئيس الوزراء وكان هذا الضمير يفكر في مسئوليته أمام ربه قبل أن يكون أمام شعبه ، فقد تغلبت عليه فيما يبدو نزعة مهنته وتعليمه الطبي ورأى أنه لا يمكن أن يبقى على ورم دون استئصال ، ولا على مرض دون علاج .

وحين استعمل رئيس الوزراء الماليزي المشروط السياسي انفتحت عليه أبواب تشبه أبواب جهنم ، وكانت أبرز هذه الأبواب سطوة هي أبواب الاعلام الغربي الذي لم يكن في الأصل راضيا بأي حال من الأحوال عن التوجهات الديمقراطية والاجتماعية لأنور إبراهيم ولا عن نجاح التآلف والتعاون بين محاضر محمد وأنور إبراهيم ولكن بعض هذا الاعلام الغربي لم يكن ليمنع في ذرف بعض الدموع على الخصم الذي تمنى له الزوال ، ولن يمانع لبعض الإعلام الغربي مرة أخرى في أن يكون أجيراً في الندب بحرقه على ميت كان هو في الأصل عدوه.... وذلك بحكم طبيعة مهنة الندب نفسها .



عند هذا الحد لم يكن من الصعب أن تختلط الأوراق على الشعب الماليزي ولم يكن للشعب أن ييأس ولا أن يبتئس ، ولكنه في كثير من اللحظات كان يجد نفسه وليس أمامه الا هذا اليأس، وهذا التمزق... إلى حين .

ولربما أن الرئيس محاضر نفسه ظل طوال هذه الأزمة عاجزا عن النوم بعد أن اضطر إلى اتخاذ مثل هذا الإجراء ضد صديقة وخليفته الذي هو أقرب إلى الابن منه إلى الأخ (فارق السن عشرون عاما) ولكن محاضر محمد وجد نفسه وهو يحاول علاج المرض أو استئصال الورم قبل أن تُهاجم أخلاقه وكفاءته في أنه أهمل العلاج أو ترك الورم فضلاً عن أنه بحكم واقعيته وإنسانيته وتواضعه وذكائه وبعده عن التآله والتأليه يدرك تماماً بل وقد صرح بالفعل بأن أيامه في الحياة ليست طويلة ، وبالتالي فلا يجوز له أن يكرس وضعاً خاطئاً ، ولا أن يفرض على شعبه خليفة أصابه التجريح ولو من بعيد .

ولربما يختلف تقييماً وتوقعنا لما كان على رئيس الوزراء محاضر محمد أن يتخذه من اجراءات أو سياسات بعد أن ووجه بهذا الشريط الذي يدين أنور إبراهيم ، ولكن أحداً منا لا يستطيع أن يزعم أن الموقف الذي واجهه محاضر محمد كان سهلاً ، ولا أنه كان في وسعه بحكم ثقافته وتعليمه أن ينحرف فيه منحى آخر من ، التقاليد الميكافيلية ، كتدبير الخلاص من نائبه بالاغتيال أو بحادث ملفق كما أنه لم يكن في وسعه أن يعالج الأمر بطرق أخرى من ، التقاليد القبلية ، كالأبقاء عليه والدفاع عنه بالباطل مهما طال الأمد .

وعلى كل فربما يصدق في هذه الحالة القول بأن محاضر محمد ظل طوال الأزمة لا يستطيع بدء النوم ، ولكنه حين كان يشرع في النوم فإنه كان ينام بعمق ..



وعلى كل الأحوال فإن رئيس الوزراء الماليزي رغم كل شيء كان عند حسن الحظ به ، وقد امتلك شجاعة المواجهة فضلاً عن الشجاعة الأدبية ، وبالإضافة إلى هذا فإنه أدى واجبه في حدود قدراته العقلية والسياسية والزمنية ...

ولكن كل هذا الانجاز الصعب للأسف الشديد أخذ يضيع ويتلاشى ويتبخر وسط

ضجيج الاعلام الغربى، وليس هذا بالأمر المستغرب، وإن لم يكن من اللائق أن يضيع أثره وفهمه عندنا هنا للأسف، انما يجب علينا على الأقل استخلاص العبرة فى فهم طبيعة النظام الاجتماعى والمبادئ الحاكمة له.

ويكفينا فى هذا الصدد أن تشير إلى المعانى الواضحة جداً التى أرساها القرآن الكريم فيما يتعلق بصيانة الحرمات الشخصية قبل صيانة الحريات الشخصية، والضوابط الرهيبة التى اشتراطها القرآن الكريم والفقہ الاسلامى من أجل السيطرة على مهرجانات الفضائح التى قد تنزع النفوس إليها فى لحظات الضعف البشرى.

ومن حسن الحظ أن تاريخ التشريع الاسلامى قد اشتمل على كثير من الاحكام والمواقف التاريخية التى كانت كفيلة بأن تنبه المجتمعات الاسلامية إلى حدود المشروعية فيما يتعلق بالحرية الشخصية، ولكن من سوء الحظ أن نظمنا القضائية فى بعض موادها قد انحازت للخاص على حساب العام (كما فى حالات إثبات زنا الزوجة) ومن ثم فقد أفقدت العام مغزاه من دون أن تدرى ..

وليتنا انتبهنا مبكراً إلى تفريق الفقہ الاسلامى المبكر بين نوعين من الحقوق : حقوق الله ، وحقوق العباد.



ونعود إلى مابدأنا به لنذكر أنفسنا بأن النمو الإسلامى فى ماليزيا مستهدف، لأنه نمو اقتصادى حقيقى مدروس ومنظم، وهو ينبىء عن دولة راسخة الأقدام فى اقتصاديات المستقبل، ولكن هذا لا يسعد جماعات مصالح دولية يصعب عليها أن تتقبل نجاحا إسلاميا فى هذا المجال، ولهذا فان الضجيج سوف يثور حول أى حدث داخلى فى ماليزيا حتى يشوش على الاقتصاد الناجح هناك.

وعلى الرغم من فشل التشويش فى ماليزيا فان فرصته فى إندونيسيا لا تزال كبيرة ..

فرنسا ومحنة العنصرية الجديدة

عقب ظهور نتائج الجولة الأولى من انتخابات الرئاسة الفرنسية (٢٠٠٢) تنامي الإحساس بالخوف وبخطورة فوز الاتجاه اليميني المتطرف بقيادة لويان زعيم الجبهة الوطنية بحجم ذى قيمة من أصوات الناخبين الفرنسيين، ومع أن فوز لويان بالرئاسة كان أمرا مستبعدا تماما منذ البداية وطوال مراحل المعركة الانتخابية، إلا أن مجرد حصوله على شريحة عالية من الأصوات أهلته لخوض الجولة النهائية نظريا فحسب، كان بمثابة جرس إنذار شديد الخطورة والتنبيه للمجتمع الفرنسى والمجتمع الأوروبى أيضا.

وقد مثل هذا الجزع الشديد الذى لاحظناه جميعا ظاهرة صحية متميزة دلت فى المقام الأول على مدى الانتباه الذى يحظى به الضمير الحضارى الفرنسى (والأوروبى) لخطورة تنامى العنصرية أو حتى ازدهار القومية على أساس عنصرى، ولو أن هذا الانتباه لم يحدث بهذا القدر الواعى واليقظ لكان هذا بمثابة بداية تدهور فى إحساس المجتمع بقيمه.

ومن ثم فقد كان من الممكن أن ينجرف المجتمع الفرنسى بسرعة فى خطوات حتمية ومتتابة ومتسارعة تقوده بسهولة إلى طراز ما من طرز الفاشية أو النازية،

وهى طرز متعددة وبراقة المظهر وناعمة الملمس، لكن اكتواء الإنسانية بها فى الحرب العالمية الثانية وما أعقبها ظل - حتى الآن - بمثابة المصل الواقى الذى اكتسبته الإنسانية طيلة القرن الماضى وهى تستعرض من آن لآخر تجربتها الحية مع الأفكار التى تبدو ، للوهلة الأولى ، براقّة وجميلة لكنها فى واقع الأمر تقود المجتمعات إلى كوارث على جميع المستويات.

وربما يتضح هذا المعنى من تأملنا فى الملامح الرئيسية لبرنامج لوبان التى تبدو وكأنها منطقية ومشروعة بينما هى فى واقع الأمر تبشر بكل ما من شأنه أن يهدم فرنسا التى عرفناها كفكرة وككيان، وليس من سبيل إلى تلخيص جوهر أو طبيعة أفكار لوبان إلا أن نستعيد التشبيه القائل بذبح الدجاجة التى تبيض ذهباً، وهو نوع من قصور النظر الذى لا يدرك حقيقة التفاعل الحى الذى يقود إلى عملية التبريض نفسها ومدى علاقته بالزمن وبالحياء نفسها.

وبرنامج لوبان إذا ما تأملناه جيداً لا يخرج عن فكرة الإسراع بذبح الدجاجة من أجل الحصول على الذهب المتوهم وجوده فى باطنها.

وتشتمل العناصر الأساسية فى برنامج لوبان على:

● طرد الأجانب وعدم منح الجنسية الفرنسية إلا لمن ينحدر من أب وأم فرنسيين، وليس ممن اكتسبوا الجنسية الفرنسية، وهو بذلك يقصد منح الجنسية فقط للفرنسى بالدم، أى أنه يعود بوطنه المتحضر إلى قضية تم طرحها كثيراً فى الماضى وتطالب بضرورة الفصل بين الأعراق.

● بناء سجون جديدة ، ومنع بناء المساجد ، وإعادة المهاجرين إلى بلادهم حتى أولئك الذين يملكون الجنسية .

● «الأفضلية الفرنسية، أى الأولوية فى فرص الحصول على وظائف فى الحقوق المدنية والعلم والطب والمساكن الاجتماعية ... وغيرها.

● فصل فرنسا عن الاتحاد الأوروبي ونبذ اتفاقية «ماستريخت»، و«شنجن»، وجميع الاتفاقات الأوروبية ، والعودة إلى العملة الفرنسية، وفي هذا الإطار ينادى زعيم الجبهة الوطنية بإقفال الحدود من أجل منع الأجانب ، والأشخاص القادمين من العالم الثالث من دخول فرنسا (!!)

● محاربة الإجهاض باعتبار أن الإجهاض «ثقافة موت»، وهو يريد ثقافة الحياة، من هنا يأتي سعيه لتشجيع كثرة الولادات ، ومنح المزيد من المساعدات للأسرة التي تملك أولادا أكثر.

- تخصيص ٤ ٪ من الناتج القومي العام لموازنة الدفاع، على حين أن المعدل الحالي لا يتجاوز ٢ ٪، كما أنه يشجع - إذا احتاج الأمر- إعلان حالة الطوارئ في البلاد لتنظيم الأمور وإحلال الأمن.

ومع هذا كله يريد لوبان - وهذه نقطة يوافقه عليها كل الفرنسيين - خفض الضرائب إلى نسبة لا تتعدى ٥٣ ٪.



وربما يعني من هذا البرنامج ذلك الجانب المتعلق بالآخرين في برنامج لوبان . إن لوبان يظن أن من يسميهم «الأجانب» يستنزفون فرنسا بدون مقابل، بينما هم ، في حقيقة الأمر ، يقدمون لفرنسا خدمات جليلة الشأن، سواء كانت في مستوى عقلي رفيع أو في مستوى يدوي وضعيف!

ولو أن لوبان طبق نظريته في يوم وليلة لافتقرت فرنسا تماماً إلى كثير من المهن ولاضطرت وأقصى سرعة إلى استيراد عمالة مدربة بأضعاف ما تكلفها العمالة التي يتولاها المتفرنسون ، أو هؤلاء الذين يسميهم لوبان بالأجانب.

إن نجوم فرنسا في الفكر والفن والأدب والرياضة لم يكونوا من الفرنسيين أبا وأما على نحو ما يطلب لوبان في المستحقين للجنسية الفرنسية، ومع هذا فإن فرنسا

فاخرت بهؤلاء النجوم الأمم لأنهم عاشوا في فرنسا بل إن حقيقة الأمر هي أنهم عاشوا في فرنسا من ناحية عاشت بهم فرنسا من ناحية أخرى.

وفضلا عن هذا فإن مفاهيم لويان عن الوظائف التي يمكن توفيرها للفرنسيين بعد طرد المتفرنسين تشبه إلى حد كبير مفاهيم «القروي» الذي قدم المدينة لأول مرة فأخذ يستنكر كثرة الوظائف والتخصصات التي يراها في كل مجال، وظن أن بإمكانه أن يقوم بكل هذه المهام على نحو ما كان يقوم بها في قريته، فإذا به على وشك أن يفقد حياته في أول وظيفة من تلك الوظائف التي تصدى لها.



ومن حسن حظ الإنسانية أن الحضارة الحديثة تأبى أن تمنح الوجود السعيد لأولئك الذين لا يدركون مدى تعقيدها ومدى حاجة الناس إلى بعضهم، ولأولئك الذين لا يدركون مدى المجازفة بتقبل أفكار أولية تبدو منطقية لأول وهلة لكنها لا تصمد كثيراً أمام التأمل.

ولعل مما يؤكد رؤيتنا في هذه الجزئية أن الذين صوتوا للويان ، حسبما أظهرت التحليلات العلمية لتوزع أصوات الناخبين ، لم يكونوا من أولئك الذين يدركون قيمة أفكاره ولا قيمة الأفكار المضادة، لكن هؤلاء كانوا خليطاً.

□ من أولئك الذين بأسوا من وضع قائم أو ضجروا منه .

□ ومن أولئك الذين لم يمانعوا في أن يرسلوا رسالة إلى الجبهتين التقليديتين بأنهم لا يمانعون في المضي نحو طريق ثالث .

□ ومن أولئك الذين يتأثرون بالإعلام الذكي الذي وظفه لويان نفسه بطريقة جيدة ..

ومع هذه الطوائف الثلاث تأتي طائفة رابعة كان من المدهش للمراقبين أنها صوتت مع لويان مع أن الذين درسوا النفس البشرية لا يندهشون لتصرف هذه الطائفة التي صوتت أغلبيتها للويان على الرغم من أنه بصريح العبارة أعلن عداته لجذورها .

□ هذه الطائفة هي طائفة أبناء المهاجرين التي تعيش في الحزام الأحمر في الضواحي الباريسية.

فقد وجد هؤلاء في لوبان بعض صورة أنفسهم التي لم تتمتع بعد بالصقل (والتمعق) والتأمل الحضارى.

نعم فقد وجدوه مباشرا وصريحا وأكثر إحياء بالثقة من غيره من الزعماء التقليديين الذين يبدون وكأنهم يظهرون ما لا يبطنون، ووجدوا في أفكاره اليمينية امتدادا لبعض أفكارهم اليه بنية التي ورثوها في جذورهم التي لا تزال بالطبع ترويه بالظما إلى أمثال لوبان حتى لو كان عدواً.

ومن حسن الحظ أن فرنسا انتبهت إلى ما يهدد مصالحها ووحدتها وخرجت لتقول لزعيم الجبهة الوطنية : لا .

□

ولكن بقى بعد هذا أن نتأمل في عالمنا الإسلامى هذا الدرس المجانى الذى تلقيناه فى فنون السياسة، ولهذا الدرس أكثر من مغزى:

المغزى الأول: أن ننتبه إلى أن ديننا الذى هو فى عقيدتنا دين للناس كافة وللشعر أجمعين لا يسمح لنا تحت أى ظرف بأن نبادل عنصرية بعنصرية، بل إن محاربة العنصرية لم تجد لها من الدوافع والمبررات أكثر من إمام أصحاب الرأى والفكر فى العوالم المتقدمة بتجربة الإسلام الثرية فى احتواء الآخرين والانتفاع بهم وتوظيفهم وتوظيف مهاراتهم من أجل الإنسانية..

وأخشى ما أخشاه أن تجد ردود الفعل المقلدة لهذا السياسى الفرنسى العنصرى بعض صدى عند بعض من يحاولون الظهور فى مجتمعاتنا الإسلامية.

المغزى الثانى: أن ننتبه إلى أهمية العمل على تحريك الأغليات الصامته من خلال
الرأى العام على نحو ما فعلت فرنسا فى هذا الظرف الذى كان كفيلا
بمثل هذا التحريك، ولن يتأتى هذا إلا بخلق حالة من الوعى التى لا بد
منها على مستويات متعددة ..

المغزى الثالث: هو أن نعى بابرار صورة العربى المسلم فى المجتمعات الغربية،
لا بد لنا أن نلفت النظر بدقة وبأرقام وبيانات إلى أهمية وجود
العرب والمسلمين فى هذه المجتمعات، من واقع ما يؤدونه بالفعل، ولا بد
لنا من اعتبارهم سفراء لهم حقوق السفراء، كما أن عليهم بعض واجبات
السفراء .

مكانة الإسلام في التحالفات الجديدة

- من الحرب الباردة إلى الحرب المتجمدة
- هل آن أوان التوجه المكثف نحو الصين؟
- حوار مع بريماكوف في تونس
- روسيا بين الصحة والمرض

من الحرب الباردة إلى الحرب المتجمدة

كنت ومازلت أعتقد أن التفجيرات النووية الأسيوية التي شهدتها العالم في الهند وباكستان قرب نهاية القرن العشرين كانت بمثابة نقطة اللاعودة في التحول من الحرب الباردة إلى الحرب المتجمدة ، وبالتالي في إنهاء ما يمكن تسميته بسيطرة أقطاب محدودة (سواء في ذلك الاحادية والثنائية والخماسية) على مقدرات الأمور في المجتمع الدولي وانتقال هذه السيطرة بالتدريج إلى دائرة أوسع .

وليس المهم هو اتساع الدائرة في حد ذاته وإنما المهم هو القدرة المتجددة لهذه الدائرة على الاتساع ، ذلك أن المجتمع الدولي في هذه الحالة لن يجد نفسه أمام أقطاب جديدة بقدر ما سوف يجد نفسه مرة بعد أخرى أمام احتمالات متجددة لأقطاب متجددة .

ومع أن الدراسات السياسية والاستراتيجية تميل ، بحكم كونها دراسات ، إلى أن تحاول حصر هذه الأقطاب والتنبؤ بها إلا أن هذه الدراسات تظل عاجزة ، بصورة بارزة ، عن أن تنجح في حصر كل إمكانية لوجود أو احتمال نشوء أقطاب ذات قوى كامنة فيما يتعلق بتكوين عناصر القوة .

ولا يمنع هذا ولا يقلل من قدرة التنبؤ ولكنه يؤكد الحقيقة التي قد يتغافل عنها بعض الخبراء الاستراتيجيين وهي أن التنبؤ عملية علمية وفكرية لا يمكن أن تبدأ من فراغ ، وكذلك فإنها لا يمكن أن تمتد إلى مالم تحط بعلمه أو بدراسته أو باستطلاعها.

وهكذا فسوف ينتبه العالم إلى حقيقة بدء عصر الحروب المتجمدة أى الحروب التي لا يمكن لها أن تنشأ إلا تحت معطيات محددة (هي فى الغالب مستحيلة) كفيلة باخراج عناصر من وض. يتها الحالية إلى وضعية أخرى ثم تعريض هذه المعطيات إلى أقصى درجة من الظروف الكفيلة بتحويل الثبات الجليدي إلى حالة سيولة ، ثم تحويل هذه السيولة إلى فوران ، ثم تحويل الفوران إلى فوران فاعل فى اتجاه محدد سلفاً.



حين يتأمل المرء تاريخ الحياة الانسانية فإنه يعجب بصورة تجعله لا يكف عن السجود لعظمة الخالق اللامتناهية فيما أودعه الله فى الانسانية المعذبة من أسرار.

فعلى الرغم من هذا العبث الذى لم يكف البشر عنه فى يوم من أيام حياتهم على الأرض إلا أن هذا العبث نفسه كان كفيلا بتطور الانسانية إلى درجات من الإدراك للوظيفة البشرية ولانقول إلى درجات من الرقى أو التطور أو الصعود حتى إن كنا لانشك فى ذلك.

كذلك فإنى أود أن ألفت النظر إلى أن حياة الانسان على كوكب الأرض قد شهدت على الدوام (على نحو ما عرفنا وما قدر لنا أن نعرف) محاولات دائبة ودعوية لتسخير الطاقة المتاحة والمادة المتاحة من أجل منفعة الانسان على حسب تصوره هو للمنفعة حتى ولو كان تصوره قاصراً.

وقد أدى هذا بلاشك إلى أن ارتقى هذا التصور نفسه ، وازدادت قدرة الانسان على الانتفاع بما استطاع استغلاله من مواد أولية ومن مواد أخرى .

وقد هدى الله الانسان الأول إلى بعض ما هدى به خلفاءه على كوكب الأرض ... وفي كثير من الأحيان كان يبدو للانسان أنه ازداد ذكاء ولكن المضي في التفكير كان يدل على أنه ربما ازداد ذكاء وربما قل ، ولكنه بكل تأكيد طور من استغلال ما سبق له استغلاله ، هكذا فعل الانسان في الماء والنار والخشب والمعدن والرمال والحجارة ، ولسنا في حاجة إلى شرح هذا التطور فهو معروف بدرجة أو بأخرى ولكننا نستطيع أن نمثد بالفهم ذاته إلى السلاح .

قد نفهم بسهولة أن كل إدارة إنسانية كانت تستخدم السلاح كانت تؤدي وظائف أخرى قد يجوز أن نطلق عليها وظائف سلمية ، وقد لايجوز ، وقد يجوز أن نسميها وظائف غير حربية ، وقد لايجوز ، ولكن الفهم البيولوجي يكاد يوحد بين استخدام السلاح في الصيد واستخدامه في الحرب فكلاهما قتل وإن اختلف المقتول ، وكلاهما قتل وإن اختلفت أيضا معاملة القتل سواء بالافادة منه كله أو من بعض اجزائه فحسب، وربما لايستهدف القتل إلا الحصول على جزء واحد كالعاج أو الفراء ، وفي بعض الأحيان فإن الانسان حين يقتل الحيوان (كله) يعتمد إلى التخلص منه فحسب دون أن يهدف إلى تحقيق أي فائدة من جثته أو بقاياه ، بل ربما أصبحت هذه البقايا بمثابة العبء ، ولعلنا ندرك هذا فيما نفعله مثلاً في الحشرات المنزلية كل يوم .



وقد اهتدى الفكر البيولوجي منذ مراحل مبكرة إلى وجود صور مختلفة للتعايش بين القوى الحيوانية القادرة على الفتك ببعضها وبين القوى غير القادرة على هذا الفتك إلا في اتجاه واحد ، وتجلت قدرة الخالق جل في علاه على أن يحفظ بهذا

التوازن البيولوجى الحياة الحيوانية والنباتية والبرية على مدى عمر كوكب هذا الأرض.

ويكاد المتأملون لطبيعة دور الانسان فى الحياة الدنيا أن يصلوا إلى ما وصل إليه الملائكة من فكر حين أخبرهم المولى جل جلاله بأنه قرر أن يستخلف الانسان فى الأرض ، ولكن من حسن البشرية أن الله قد أنعم على عقولها فى مرحلة مبكرة بما يرتفع بنتيجة فكرها العقلى القاصر عن أن تقف عند الحدود التى وقفت عندها الملائكة حين قالت لله سبحانه وتعالى : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فأجابهم المولى ﴿ إنى أعلم ما لاتعلمون ﴾ ...

وهكذا أصبح فى وسع العقل البشرى أن يدرك أن وراء كل هذا التدافع البشرى منافع أخرى كفيلة باستبقاء الحياة والحضارة بل واستبقاء العبادة نفسها بل والعبادة المتواصلة المكثفة بكل صورها لا الحياة والحضارة فحسب ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم لهدمت صوامع وبيع وصلوات يذكر فيها اسم الله ﴾ .

على هذا النحو استطاع العقل البشرى فيما أفرزه من انتاج كثير من المفكرين والفلاسفة أن يصل إلى تقدير حدود مدى الفائدة التى حققها الطب على سبيل المثال من اندلاع الحروب ، ومن الحقائق المسلم بها فى تاريخ الطب أنه إذا كانت هناك عوامل بشرية وراء التقدم الرهيب الذى أحرزته العلوم الطبية على مدى الزمان فإن الحروب تأتى فى مقدمتها ، وهذا هو ما أثبتته تاريخ العلوم الطبية على مدى الأحقاب المتوالية من الزمان .



وقد دلتنا دراسة توازن القوى الحيوية حتى على مستوى الخلية وعلى مستوى التفاعلات الكيميائية الحيوية البسيطة أن الاستقرار لا يتحقق إلا نتيجة لوجود التوازن فى القوى ، حتى وإن لم تكن هذه القوى متحدة الطبيعة ، وأنه فى غياب هذا التوازن تنشأ وتتزايد حالات الاستقطاب .

وحيث يكون الاستقطاب هو الأساس المطلوب لبدء حلقة من التفاعلات كفيلة بإدارة وظيفة حيوية صغيرة أو كبرى (كما في حالات انقباض القلب) فإن عودة التوازن من جهة أخرى تكون بمثابة العامل الكفيل ببدء دورة جديدة، من دورات الطبيعة كفيلة بتكرار أداء الوظيفة ، ومن دون تكرار أداء الوظيفة لا يمكن للحياة (سواء على مستوى الخلية أو النسيج أو العضو أو الفرد) الاستمرار.



على هذا النحو كنت أنظر بمنتهى الإعجاب والثقة والتفاؤل إلى ما حدث من تعاقب التفجيرات الآسيوية في نهاية القرن العشرين ، وكنت أجد في هذا الحدث وتكراره أكبر خطوة جبارة تخطوها البشرية نحو الاستقرار السياسي وانتهاء حالات الاستقطاب القلقة ، بل إننى كنت على الدوام متفائلاً لأسباب ثلاثة :

(١) أن امتلاك كل من الدولتين الجارتين للسلاح النووي كان كفيلاً إلى أبعد حد بإيقاف التهديدات الصادرة عن الطرف الآخر عند حدود الكلام والتصريحات ، فليس هناك بشر عاقل بقادر على أن يتخذ القرار الذى يدمر به نفسه ، ومن حسن الحظ أن العقل الجمعى ينجو بأكثر مما ينجو العقل الفردى من الميل النادر إلى اتخاذ قرار الانتحار .. وهكذا فقد أصبح النزاع الهندى - الباكستانى على سبيل المثال مدفوعاً بشدة إلى مائدة المفاوضات بفضل ما يمكن لنا تسميته بإعادة الاستقطاب بعد أن كان منجذباً بحكم الاستقطاب إلى ساحات المعارك.



(٢) أن وصول الدولتين إلى هذه الدرجة من النجاح فى تطبيق العلم بدقة للوصول إلى منتوجات علمية فاعلة قد أكد للجميع على أهمية عوامل القوة الذاتية وذلك بعد أن كان الفكر السياسى فى البلدان العربية والإسلامية قد بدأ يميل إلى الاقتناع ببعض الآراء الزائفة التى رددتها عن عمالة بعض شخصيات ميكافيلية على

مستويات مختلفة ومتعددة وقد بذلت هذه الشخصيات الميكافيلية كل جهودها في تضليل الجماهير بما أرادت أن تصوره على أنه عوامل القوة ، وتوازاناتها .



ومن سوء حظ مصر أننا ابتلينا في مرحلة من المراحل ببعض هؤلاء الذين أفرطوا في التعبير عن أهمية الإلهام والكارزما وما إلى ذلك من صفات شخصية وزوعوها بمعرفتهم على بعض الزعماء ، ثم أفرطوا كذلك في الحديث عن أهمية عناصر غير متطورة من القدرة على صناعة الأحداث ، وقد ساعد امتداد العمر بهؤلاء على ادعاء الحكمة باثر رجعي ..

ومن المؤسف له أن جرعات الضلال والتضليل التي بثها بعض هؤلاء (بل مازالوا يحاولون بثها) لاتزال متراكمة في الجسم العربي ولاتزال بحاجة إلى فترة وديلة وغسيل أجواف لاخراجها وتطهير الجسم العربي والعقل العربي بالتالي من تأثيراتها الضارة .

وفي ظل غياب المجتمع العلمي وغياب روح البحث العلمي عن المجتمع العام في بلداتنا العربية والإسلامية فإنه يصعب علينا أن نقنع الجماهير العربية أن الوصول إلى التفجيرات النووية قد استغرق كل هذه السنوات يوماً بعد يوم ، وأنه ربما لو نقصت هذه السنوات يوماً واحداً لنقص في هذه التفجيرات شيء يقضى على الإنجاز نفسه كله لأن العملية العلمية مترابطة جداً وكل جزئية فيها تمت بصلة إلى جزئية قبلها وأخرى بعدها وثالثة عن يمينها ورابعة عن يسارها ، وخامسة تحتها ، وسادسها فوقها وهكذا...

ولكن النسيج العلمي نفسه كفيل بأن يفتح للمتعاملين معه السبيل إلى استكمالها ماداموا يمشون في خطوط مستقيمة .

وسأبسط المسألة إلى حد الاختزال بتذكير الجمهور بما يحدث في حلهم للكلمات للمتقاطعة فإن حل الأفقى كله صوابا كفيل بحل الرأسى كله صوابا كذلك ، وحل بعض من هذا إلى درجة معينة وبعض من ذلك إلى درجة معينة أخرى كفيل أيضا بالوصول إلى الصواب .. ولكن التناثر هنا وهناك لا يحل الكلمات المتقاطعة ، وهى بحكم قانونها إما أن تحل وإما ألا تحل .

(٣) الحقيقة الثالثة أن السلاح التقليدى عنصر كفيل بالقوة ولكن من الممكن للقوة أن تتحقق أيضاً بدون سلاح التقليدى ، بل ربما يكون السلاح غير التقليدى أقوى بكثير جداً من السلاح التقليدى ، وهامى التفجيرات النووية تعوض النقص الأكيد (والمعروف) فى امتلاك الدبابات والبوارج والمدرعات والمدفعية بأفضل كثير جداً من شراء أساطيل بحرية وبطاريات مدفعية وحاملات طائرات كما يحدث فى أماكن أخرى من العالم .

وليس من شك أن هناك عوامل كثيرة كفيلاً بتحقيق القوة ولكن العلم هو العامل الأول بلا جدال فيها ، ومن المؤسف له أن حقد بعض أهالىنا على ما تحقق بفضل حرب ٦ اكتوبر من ثروات بعض البلاد العربية والإسلامية التى تحققت كنتيجة لهذا الإنجاز المجيد والخالد بعيداً عن كل أمنيات كسينجر وغيره من مخططى الدول الكبرى (ثم المنبهرين بخبثهم فيما بيننا) قد أنساهم الانتباه إلى الخطوات الممتازة التى تم البدء بها فى هذه البلاد فى سبيل خلق مجتمع علمى قادر على استيعاب العلم وتوظيفه لخدمة المجتمع ، ولنذكر أن نشأة المجتمع العلمى لا تتم فى عام ولا عشرة وإنما تحتاج جيلين على أقل تقدير .

وعلى الرغم من استمرار كثير من ابنائنا الحديث عن العالم العربى بصورة أشبه بوصف الرحالة له منذ قرن مضى إلا أن الحقائق تشير إلى أن المؤسسات العلمية فى الوطن الإسلامى والعربى قد أصبحت بالفعل على الطريق الصحيح وهو طريق تكوين «نويات» و«بؤر» صالحة لانجاز علمى قريب .

وهناك أمران من أبرز الأمور التي ينبغي على أن ألفت الانظار إليها فيما يتعلق بمستقبلنا العلمى والبحثى وعلاقته بالقوة الاستراتيجية فى عالم اليوم:

● الأمر الأول: أن أشير إلى أهمية وجود حجم كبير من العلماء الفيزيائيين على سبيل المثال قبل التمكن من النجاح فى خطوة علمية كبيرة (إجراء تفجيرات نووية على سبيل المثال) .

ونحن فى الجامعة مثلاً لانبدأ الاحساس بازدهار تخصص معين إلا بعد وصول عدد الأعضاء العاملين فيه إلى عدد معين يسمع بتغطية التخصصات الدقيقة المتعددة لكل تخصص علمى يبدو أمام الناس أنه شىء واحد فحسب ، ثم لا بد من قوة بشرية احتياطية تكون كفيلاً بتغطية غياب بعضنا حين يسافرون للاستزادة من العلم أو الاستزادة من المادة أو حين يعترى بعضهم ما يعترى النفس البشرية من الابتعاد المؤقت عن العلم والعودة إليه .

وقد حرصت ذات مرة أن أتأمل حياة كل أساتذة تخصص معين فى مصر فوجدت أن أحداً منهم لم ينج من آفة أن يبتعد عن العلم تماماً لعدة سنوات حتى ولو ظل فى موقعه الوظيفى أو العلمى ، وقد يعود بعضهم إلى العلم وقد لايعود ، أو قد يعود إلى هامشه على الأقل ...

هكذا يمكن لنا أن نفهم أن زيادة عدد الباحثين والعلماء فى كل تخصص علمى هى الصمام الوحيد المتاح للتغلب على النقص الذى يعترى هيئات الباحثين للأسباب التى ذكرناها ، ولأسباب فسيولوجية أخرى كالانشغال بالزواج والحمل وتربية الابناء ، ولأسباب سيكولوجية ليست بعيدة عن الاحتمال كالأحباط والنفور من رئيس القسم فى بعض الأحيان ، ...
(الخ) .

ولاننسى - على سبيل المثال أيضا - أن نشير إلى أن بعض التخصصات العلمية في مصر أصبحت ، مؤنثة ، تماما إلا قليلا بحكم عوامل تاريخية كثيرة جعلت بعض الأقسام في كثير من الكليات والتخصصات تحظى باقبال السيدات ثم احتكارهن لها .. ومن هذه الأقسام على سبيل المثال الأقسام الأكاديمية في كليات الطب وأقسام اللغات الأوربية في كليات الآداب.

فاذا أضفنا إلى هذا كله الأنزفة المستمرة إلى الخارج وإلى الداخل وإلى مجالات أخرى متصلة بالسوق أكثر من اتصالها بالعلم أدركنا أننا لا تزال في حاجة إلى زيادة عدد ، المواليد ، الذين ندخلهم حلبة البحث العلمي للتغلب على زيادة عدد ، المفقودين، ...

ومن المهم أيضاً أن ندرك أن قلة الانسحاب من المحيط العلمي ستكون هي العامل الأول في تنظيم أسرة البحث العلمي وتقليل أعدادها الزائدة التي تحسب الآن على العلم بينما هي لا تشغل به .

● الأمر الثاني : هو حجم الاستثمارات في البحث العلمي وهي جوهر مشكلة البحث العلمي في مصر على سبيل المثال حين لاتجد الفكرة (مثلاً) من يستغلها .

ولن أفيض فيما استسهلت أقلام كثيرة في الخوض فيه حول إجمالي الموازنات المخصصة للبحث العلمي ونسبتها وما إلى ذلك فان ظروفنا التاريخية لاتخفى على أحد منا ، ولا ينبغي لنا ربط الإفادة بما أصبح متاحاً من فكر بتحقيق أقصى درجات الإفادة، أو بتوفير الظروف الكفيلة بتحقيق أقصى درجات الافادة ذلك أن الحياة قد علمتنا أن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

ويبدو لى بكل أسف أننا فى كثير من مؤسساتنا أصبحنا نرفع شعاراً واحداً فقط هو أن ما لا يدرك كله لا بد وأن يترك كله ..

أقول هذا وكلى أسف أنه كان بوسعنا ولا يزال أن نستغل كثيراً من الأفكار العلمية التى توصلنا إليها رغم وعورة الظروف ، ولكننا نبخل على أنفسنا بهذا ، وكأنه ليس من حق الفقير أكل التفاح والكافيار إذا أتيج له بجهده .

ولو كان الأمر بيدى لأسست بمعونة من الحكومة بنكا للعلم تضم إدارات الائتمان فيه ودراسة الجدوى كثيراً من العلماء القادرين على البت فى مدى إمكانية الافادة من بحث تطبيقى وتمويله بالقدر اللازم لتنفيذه على مدى التجريب ، ثم على مدى انتاج الجملة .

وحينئذ ، وبفضل جهود متوازية فى مجالات عديدة فقد تتحقق لمصر (أو لمثيلاتها من الدول الإسلامية) القوة التى تجعلها عنصراً فاعلاً فى الحرب البارزة فى القرن القادم وهى الحرب المتجمدة .

ولست أدرى هل أسست الولايات المتحدة الأمريكية البنك الكيمائى فى الماضى لهذا الغرض ؟ أم أن اسمه كان مجرد اسم ! لست أدرى إلا أن هناك بنكا فى الولايات المتحدة اسمه البنك الكيمائى .. وربما نحن فى مصر أكثر حاجة إلى وجود مثل هذا البنك ! .

هل أن أوان التوجه المكثف نحو الصين؟

عبرت الترتيبات الصينية التي تمت في نهاية ٢٠٠٢ عن التقدير الاستراتيجي العميق الذي تتمتع به أجهزة الدولة، والحزب الشيوعي، والحكومة الصينية، ويبدو بكل وضوح أن حجم التقدير الاستراتيجي الصيني للعالم العربي والإسلامي يفوق بمراحل حجم الإدراك العربي والإسلامي المقابل لأهمية هذا التقدير، فضلا عن أنه من ناحية أخرى يفوق التقدير الاستراتيجي العربي والإسلامي نفسه، على الرغم من أن الفائدة العائدة على العرب من توثيق وتنمية العلاقات مع الصين ربما تفوق الفائدة المتوقع للصين أن تحققها.

والشاهد أن حركة التاريخ قد أثبتت لنا على مدى تجارب عديدة في الماضي القريب والبعيد على حد سواء، أن القوى الكبرى المؤثرة في سياسات العالم لا تخلق نفسها بنفسها، ولا برغبتها فحسب، ولكنها كثيرا ما تحتل هذه المكانة بناء على حاجة ملحة من المستضعفين في الأرض إليها أو إلى وجودها أو إلى تنامي تأثيرها في السياسة الدولية.

والحاصل أنه يستحيل على أي مراقب أن ينكر مدى مواءمة بل وجاذبية فكرة التوجه إلى الصين في ظل الظروف الحاضرة التي تعيشها القضايا العربية والإسلامية وفي مقدمتها بالطبع قضية فلسطين.

ومع هذا فإن هناك أقداراً من التوجس قد تسيطر على أحاسيس الرأي العام بمدى جدوى وفعالية هذا التوجه إلى الصين، بل ربما بمدى مشروعية (أو شرعية) هذا التوجه، ولا يمكن لنا أن نمضى فى الدعوة إلى هذا التوجه دون معالجة كافية لهذه الهواجس.



والحاصل أن بالإمكان أن نلخص أسبابا وجيهة لمثل هذه التوجسات التى قد تبدو فى نظر البعض نوعا من أنواع التزيد فى التخوف بلا مبرر، وقد تبدو فى نظر الآخر نوعا من أنواع التنظير غير المبرر لذرات أو جزئيات غير مرئية فى الفلسفة السياسية.

ومبلغ ظنى أنه من المفيد ومن الضرورى أيضاً أن نتصارع مبكرا بمثل هذه الهواجس قبل أن ننطلق إلى تزكية أو تدشين إطار واسع ومطلوب لنمط جديد من علاقات دولية يتطلع إليها المسلمون والعرب لتخفف عنهم من سعيير وغلواء بطش ظاهر وباطن يتنامى مع الأيام على يد قوة عظمى كانوا ولا يزالون يظنونها حليفاً، ولكن عدوهم التاريخى أصبح يتباهى بأنه يسيطر على مقدرات الأمور فى كل مؤسسة من مؤسساتها التى تملك سلطة إصدار قرار يتعلق بالعدوان الشرس على أرض وشعب فلسطين.

وسأتناول على سبيل المثال ثلاثة من هذه الهواجس:

(١) أول هذه الهواجس الخوف ضعيف الاحتمال من أن تكون الصحوة الكبرى التى تشهدها الصين اليوم بمثابة مرحلة قبل نهائية من أفول نجم هذه القوة، ويغذى الشعور بمثل هذه الفكرة ما حدث فى الاتحاد السوفيتى نفسه - مع الفارق - من تشجيع وتصفيق لسياسات المصارحة والمكاشفة وإعادة البناء وإذا بإعادة البناء تتوقف عند الهدم والتفكيك فحسب.

ويغذى الشعور بمثل هذه الفكرة أن أحدا لا يضمن الأطر الكفيلة بالحفاظ على حجم النجاح الذي تحقق. فمن الممكن أن يقفز إلى مواقع المسؤولية من هم أقل كفاءة من أصحاب الكفاءة الفذة التي أوصلت الصين في السنوات الأخيرة إلى هذا التفوق والالتزان، وهو أمر وارد، غير أن أهم صمام أمن كفيل بالتغلب عليه هو أن يحس العالم وأصدقاء الصين على وجه الخصوص بأن القوة العظمى البازغة في هذه المساحة الشاسعة من اليابسة تعلى بالفعل من شأن المؤسسات، وأنها تتحسب بالقانون والنظم والمنظومات لعدم الاعتماد الكلى على استمرار وجود الشخصيات العبقرية التي وجدت بالفعل في لحظة من لمحات الزمان وأثمر وجودها هذا الإنجاز الضخم.

ومن حسن الحظ أن الخطوات التي اتخذها الحزب مؤخرا بدفع الوجوه الجديدة وتخلي الوجوه القديمة ، وانمام هذا التحول عبر فترة انتقال تنم بكل وضوح عن أن روح المؤسسة تسيطر تماماً على الساسية الصينية.

(٢) ثانى هذه الهواجس هو الخوف من أن تنجح أجهزة الولايات المتحدة الأمريكية نفسها (أو قوى شبيهة) فى أن تشعل فى المنطقة العربية الإسلامية بعضا من الاتجاهات الأصولية التى تركز فى أصوليتها على حرمة التعاون مع الشيوعية ومعتنقها باعتبارهم من غير أهل الكتاب، وهو أمر وارد بالطبع، وبخاصة أن هذه النبرة قابلة لأن تعلق وبسرعة، ولن يكتشف أصحابها أنفسهم أنهم يؤذون أوطانهم بها، وإنما سيكون ظنهم هذا بمثابة يقين راسخ لا يقبل الجدل ولا الحوار، شأنهم فى هذا شأن كل أصحاب العقائد المتحمسين الذين يصعب جدالهم، بل إن نمو مهارة أعدائهم الحقيقيين جعلتهم الآن لا يمانعون فى أن يؤدوا أدواراً تصب فى مصلحة أعدائهم الحقيقيين، مبررين ذلك بوعيهم التام لأن المصالح قد تتلاقى دون أن يعنى هذا فسادا فى النبرة أو التصرف الذى يندفعون إليه دون حساب جيد للجوانب الأخرى من القضية التى هم بصدددها.

وليس هذا الهاجس بقليل الخطر في ظل تنامي النزعات الخطابية، وفي ظل معاناة أجيالنا الجديدة من قصور التعليم على مستويات متعددة، وفي ظل غياب ثقافة فقهية حقيقية، وفي ظل عجز واضح عن التصدي الفكري الدائم والمتواصل لمثل هذه الآراء، بل إن الأمر يزداد صعوبة حين تعلق النبرات لتهدد الهادفين إلى المصلحة بشعارات التخوين من ناحية، وهي تهمة صعبة، والتكفير من ناحية أخرى، وهي في المقابل تهمة قاتلة.

(٣) وثالث هذه الهواجس يرتبط ارتباطا مباشرا بغياب الثقافة الصينية عن الوجدان العربي، ذلك أنه يندر أن تجد مواطنا عربيا قرأ رواية صينية أو عملا أدبيا صينيا شعرا أو دراما، أو وهو ينقل أو يتأثر بعمل فني صيني، ومن ثم فإن التوجه إلى الصين معرض لأن يصبح توجهها مرحليا وغير ذي جذور.

وصحيح أن هناك تراثا شريقيا مشتركا بين الصين وبين العرب، وصحيح أن هناك مسلمين صينيين يرتبطون بأرض العروبة والإسلام بوشائج روحانية، وصحيح أن الإسلام في الصين ليس دينا فحسب، ولكنه أيضا قومية، وصحيح أن هناك أقساما كبرى لدراسة اللغة العربية والآداب العربية في الجامعات الصينية، إلا أن العكس للأسف غير صحيح، وهذا هو ما ينبغي أن نلتفت إليه بالاهتمام، ويستلزم هذا البدء بالاعتراف!! فدراسة الصينية في البلاد العربية محدودة، والذين تعلموا في الصين ندرة إن لم يكونوا أقرب إلى العدم، والأعمال الأدبية والفنية الصينية لم تلق النقل، إلى اللغة العربية ولا نقول إنها لم تلق الانتشار والذيع، فتلك خطوة تالية لم تتحقق الخطوة السابقة عليها.

بل إن هناك ما هو أدهى من هذا كله، وهو أصداء الثقافة التكنولوجية، فليس بوسعنا نحن الداعين إلى التوجه إلى الصين أن نزعج أن خلفيات متاجرنا وصناعنا ومؤسساتنا ولا حتى مستهلكينا ندرك شيئا عن الإنتاج الصيني أكثر من كونه متاحا بأسعار مقلوبة، ومنتجا بكميات غزيرة، ولكننا لانستطيع - على سبيل

المثال - أن نميز بين مصنع صيني وآخر على نحو ما نميز بين تويوتا وهوندا ومازدا، أو بين المرسيدس والبي إم والفولكس، أو بين الرينو والبيجو والستروين، أو بين السوني والناشيونال، أو بين الفيليبس والنوكيا.. وهكذا.. إنما نحن في متاجرنا نستقبل كل ما هو صيني بنظرة أحادية، المنظورة حتى الآن، فكله صيني فحسب، ولا نستطيع بعد أن نعرف أن في الصين كما في بقية الدنيا مستويات متعددة من الجودة والإتقان، وكأننا نظن المصانع الصينية مصنعاً واحداً فحسب.



وعلى كل الأحوال فإن التوجه نحو الصين أقوى من أن يتبدد بمثل هذه الهواجس، ولكنه يتطلب قدراً من الجهد الذي ينبغي علينا أن نبذله من أجل إقناع أنفسنا أما الصين فهي مقتنعة، ولو أننا لم نتوجه إليها اليوم فسننوجه إليها غداً.... ويبدو أنها تعرف ذلك.

حوار مع بريماكوف في تونس

كان رئيس الوزراء السوفيتي بريماكوف أحد المتحدثين الرئيسيين في الندوة السنوية التي أقامها التجمع الدستوري التونسي في الذكرى الخامسة عشرة للتحويل الديمقراطي الذي قاده الرئيس التونسي زين العابدين بن علي، وقد دارت أحاديث الندوة ومناقشاتها عن التحديات الجيوستراتيجية في عالم اليوم.

وعلى عادة مثل هذه الندوات فإن المقدمات التي يقدم بها كل متحدث لإسهامه البحثي تطول حتى تلتهم معظم وقت البحث، كما أن الصياغات التقليدية تغطي على ما يريد المتحدث أن يجاهر به من آراء، وقد حدث هذا بالطبع مع رئيس الوزراء الروسي الأسبق، ومع هذا فإنه كان قادرا على أن يعبر بكل وضوح عن إيمان عميق بقدرة الولايات المتحدة الأمريكية على قيادة العالم، وهو لم يقل هذا المعنى بصراحة على هذا النحو، لكنه جعل مستمعيه يتوصلون إليه من خلال أحاديث مطولة عن أنه لم تكن هناك قوى عظمى ولا دولة عظمى، وكأنما مثل هذا الحديث قادر على أن يغير حقائق التاريخ.

وقد ذهب بريماكوف يكرس هذا الاتجاه من خلال أحاديث أخرى عن أدوار أخرى تضاف إلى الدور الأمريكي تتمثل في أدوار اليابان وألمانيا وفرنسا وروسيا وما إلى هذا.

وقد بدا لي بكل وضوح أن بريماكوف بعد الخبرة الطويلة في البيروقراطية السوفيتية المتباهية، ثم في البيروقراطية الروسية المتواضعة من بعدها، أصبح يفضل إمساك العصا من الوسط في كل قضية، بل إنه أصبح حريصا حتى على التحرز من أن تنسب أقواله إلى المجتمع الذي ينتمي إليه، ولهذا فإنه تعمد أن يصحح للمترجم الذي ترجم أحد حواراته قوله «نحن نرى، إلى أنا أرى»، وقال هذا بلغة عربية واضحة الانتماء إلى العامية المصرية المحببة.



ويبدو بريماكوف حريصا كل الحرص على عدم إغضاب الولايات المتحدة الأمريكية وساستها الجدد وسادتها القدامى، فهو يتبنى وجهة النظر الأمريكية تجاه العراق، وإن صرح ببعض محاولات تبذل لفرملة هدير الغضب والسلطة الأمريكيين، كما أنه يتبنى الرؤية الأمريكية تجاه الإرهاب، بل إنه أكثر من هذا يتبنى الرؤية الأمريكية الجديدة تجاه الإسلام بكل مسوره، وهو لا يكلف نفسه الدفاع عن الإسلام والمسلمين الذين عاشوا من حوله في مصر والاتحاد السوفيتي وغيرهما، لكنه يؤثر الاندفاع مع النزق الإعلامي الأمريكي، وإن كانت عباراته المنحازة قد استفادت تماما مما يوفره لها البرود الروسي الشهير من تحفظات وقدرة على التراجع.

ويطالب بريماكوف العراق بأن تلتزم تماما بقرارات مجلس الأمن الدولي، لكنه في الوقت ذاته يشير إلى قدرة الصين وروسيا وفرنسا على كبح جماح الولايات المتحدة وبريطانيا فيما تريدانه من قرارات في مجلس الأمن.

وحين يلح بعض الصحفيين لبريماكوف بما يتردد عن اتفاقات سرية بين أمريكا وروسيا حول اقتسام بترول العراق فإنه يشير بقدر من الفخر الهادئ إلى أن روسيا أصبحت هذا العام أكبر مستخرج للبتترول في العالم، وكأن في هذا ما يكفي لتبرئة نوايا دولة كبيرة لا تزال بحاجة إلى مصادر أخرى للطاقة من أراضي ليست بعيدة عنها.

ولم يكن حديث بريماكوف عن الأحوال الداخلية الروسية باعثا على قدر أكبر من الأمل فى عقلية قادرة على اختراق المشكلات، فقد أثر بريماكوف أن يصور بوتين والنظام الروسى فى صورة الحمل الوديع الذى لا يستطيع شيئا تجاه تعنت زعيم الشيشان، بل إن بريماكوف تبنى رأى بعض المسئولين الروس حول إشراف الزعيم الشيشانى بنفسه على عملية احتجاز الرهائن واتصاله بهم، وبناء على هذه المقدمات فإن بريماكوف أصبح يرى فى تصرف بوتين ما يمكن أن يوصف بأنه التصرف الطبيعى أو الصواب الأوحى فى هذه الحالة.

وعند هذا الحد وجدت نفسى أسأل الرجل عن الإجراءات الوقائية، وعن يقظة الأمن، وإذا به كعادة البيروقراطيين المخضرمين الذين يتمتعون بقدر من الحس السياسى يجهض السؤال إجهاضا حميدا بأن يعترف بكل وضوح بأن هذا هو السؤال، وأن هذا التهاون أو الإهمال كان هو الخطأ الأكبر.



وطيلة الحوار تمثل لى بريماكوف فى صورة المحلل اللاحق الذى يؤثر أن يتأمل الأحداث على نحو ما حدثت، ويؤثر أن يتبنى رؤية وجهة صاحب السلطة أو صاحب الانتصار، فهو من الذين يؤمنون بالنجاح فى حد ذاته، وكأنه لا يدرك أن بعض النجاح يكون أخطر من بعض الفشل، وأن بعض الفشل يكون أجدى من النجاح المطلق.

ومع هذا فإن بريماكوف على الرغم من تقدم سنه، وعلى الرغم من إسهامات متعددة فى مجالات مختلفة، لا يزال يتمتع بحضور سياسى، ولباقة ذهنية عالية، ومع أنه لا يرقى إلى شجاعة يلتسين وجسارته، ولا إلى ذكاء بوتين، فإنه بكل تأكيد كان قادرا على أن يتفوق على بريجيف لو أن مقارنة كانت قد عقدت بينهما فى يوم من الأيام، ولو أن الأقدار اختارته لرئاسة الوزراء قبل جورباتشوف لكان قادرا على أن

يستبقى الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى تدور في فلك الولايات المتحدة الأمريكية، بدلا من أن يتوزع ذلك الاتحاد إلى أعمار صغيرة يدور كل منها في مدار، ولكنه في كلا الحالين متشعب بقدره الخطرسة الأمريكية على أن تفرض رؤيتها الصائبة،، وغير الصائبة من باب أولى.

ولهذا فإنني أرى أن من الواجب على القوى السياسية في العالم الثالث والدول الأوروبية الأقرب إليه أن تعاود التفكير في جدوى فكرة التوازن من أساسها، ذلك أنه بفضل مناقشات ومداولات الندوة التونسية التي رعاها الرئيس التونسي بنفسه ووجه لها خطابا مهما تلاه الدكتور حامد القروي النائب الأول لرئيس التجمع الدستوري، ظهر بكل وضوح أن فكرة التوازن لم تعد قادرة على أن تقدم نظاما ديناميا قادرا على التقدم بالبشرية إلى الأمام، وإنما أصبحت الطاقات المتولدة تعاني من بقايا القوى الدافعة للبشرية إلى التقدم، وقد تحولت هذه القوى إلى محاولة الترتيب الطبيعي الكفيل بإظهار صورة الاتزان السلبي الذي يكفل بقاء الأمور على ما هي عليه، وهي الفكرة النقيضة للفكرة التي يقوم عليها وجود الإنسانية نفسه، ذلك أن البشرية حسب معتقداتنا وجدت لتمارس الصواب والخطأ، لا لتكف عن التجربة، ووجدت من أجل إحداث الخطوات الكفيلة بقيادة خطواتها في اتجاهات كفيلة بالتجديد والتعمير والتحديث والبناء.

ومن حسن الحظ أن هذه الندوة السنوية التي انعقدت أربع عشرة مرة حتى الآن تقام في إطار الاحتفالات بخطوة دستورية جريئة ومبرأة من الدماء والسجون ونفى الآخر قادها الرئيس التونسي منذ ١٥ عاما، في وقت كانت تونس أحوج ما تكون فيه إلى مثل هذه الخطوة، وقد استطاعت تونس من خلال هذه الخطوة أن تعيد كثيرا من الأصول الكفيلة بتقوية قدرتها على التحديث من خلال معادلة صعبة ومتزنة، لكنها - وهذا هو الأهم - قادرة على دفع المجتمع إلى الأمام. ولهذا السبب لم يكن بدعا أن

يكون حديث الوزير المثقف البارز الصادق رابع هو أكثر ما شدنى فى هذه الندوة حين تمكن فى هدوء شديد من أن يلفت نظر الزعامات السياسية فى بلاده وحزبه ومعهم بعض المشتغلين بالسياسة فى الدول الأخرى إلى بعض التوجهات الحديثة فى قضايا التوازنات، وهى توجهات كفيلة بخلق أدوار فاعلة فى عصر يرحب بالفاعلية رغم الظنون، التى تطفى، بانتهاء عهد المشاركة وسيادة فكرة العزف المنفرد.

روسيا بين الصحة والمرض

قبل أن ينتهى عهد يلتسين شهدت روسيا مناوشات بين الرئيس وبين البرلمان، وكان كثير من المحليين يظن هذه المناوشات كفييلة يضياع هيبة روسيا وربما يضياع الدولة نفسها، ولكنى كنت أجاهر برأىي وهو أنه على عكس ما توقع كثير من المراقبين فان روسيا تتعافى، وأن ما يحدث هو دليل على الخروج من شرنقة المرض إلى حياة الصحة، وكنت أرى فيما يحدث دليلاً على انتهاء حقبة خداع الجماهير بتوافق السلطات، وبداية دنيامية العمل السياسى، وهى دنيامية خصبة كانت روسيا تفتقدها، ولأول مرة فى التاريخ المعاصر أصبحت الخلافات بين البرلمان ورئاسة الدولة سجالاتاً لاكثر من مرة يتناوب الجانبان الانتصار بما يملكان من قوة على الاداء وقدرة على المناورة، فالرئيس يحل البرلمان حين يستطيع، ويحاصره حين يستطيع، ولكنه أيضا ينحنى له حين لا يكون أمامه إلا الانحناء له.

وعلى الرغم من كل المآخذ التى كانت تؤخذ على الرئيس الروسى يلتستين وسياساته فإنه ظل يتمتع بقدرة العودة إلى الصواب والرجوع عن الخطأ، فهو يقبل رئيساً للوزراء لم يوافق عليه ولم يبشر به أحد غيره، وهو يحاول أن يستعيد رئيساً آخر لم يقله غيره، وهو الذى يبادر فى جميع الأحوال بطرح البدائل، وحين يكون معرضاً لأن يتهم بالتخبط من جراء هذا كله فإنه لا يرتعد وإنما يستبق الآخرين ويرعد !!

وهكذا فإنه كان يستمر في الأداء على الرغم من أن صحته تبدو وكأنها لن تساعد على الرغم من أن ظروفه لن تساعد ، وعلى الرغم من أن الذين يظهرون أنهم حلفاؤه لن يساعده ، ولكن شعبه على الرغم من ذلك كان يحس باجتهاده الواضح من أجل الوصول إلى الصيغة المثلى الكفيلة بتجاوز المشكلات التي لم تكن وليدة اليوم ولا أمس القريب فقط وإنما هي امتداد طبيعي لمرحلة الجمود والشلل التي انتهت إليها الاتحاد السوفيتي في عهد بريجنيف بعد مراحل ممتدة من التآلق والنجاح في عهدي ستالين وخروشوف ولينين من قبلهما.

ورأى أن روسيا كانت قد بدأت تتعافى بفضل وجود هذا الرأس الذي كان يبدو غير قادر ولكنه في اللحظات الحاسمة لم يكن يتردد في أي قرار يرى فيه انقاذاً لاقتصاد بلده سواء كان هذا بالاندفاع إلى التحرير الاقتصادي أو حتى بالتوقف فيه !! وسواء أكان هذا بحماية العملة الوطنية أم بالتضحية بها .. وتكرر التحليلات التي تهين للناس أن الصواب سهل بينما الوصول إلى أقل الأخطاء خطراً هو غاية ما يتمناه المسئول في نظام يعاني كل هذه المعاناة التي كانت روسيا تعانيها ولكنها على الرغم من كل شيء نجحت في أن تتعافى .



وفي رأيي أن القارئ أو المتأمل للأزمة الروسية في بداية القرن الحادي والعشرين لا يستطيع أن يغفل العناصر الرئيسية الثلاثة في تنامي هذه الأزمة إلى الحد الذي وصلت إليه هذه الأيام .

(١)

أما الأزمة الأولى فهي غياب القيم الخلقية عند طائفة كثيرة من الجيل المتصرف في الأمور في كافة المؤسسات الروسية .. وعلى الرغم من أن الشعب

الروسي شعب طيب وأصيل ومنتج ومسالمة، كما أن جذور حضارته تمتد إلى قرون طويلة، ولا تزال الشواهد عليها قائمة، إلا أن الحاجة إلى القيم الخلقية تظل متجددة مع كل خطوة من خطوات الإصلاح، وهي مطلوبة أيضاً بالحاح في كل خطوة من خطوات إعادة البناء، وإلا فإن البناء نفسه لن يستعاد، ولسنا ننكر أن كل إنسان طبيعي في الشعب الروسي قد عانى الانتقال المفاجئ من الحالة الغازية إلى الحالة المتجمدة ثم إلى الحالة السائلة وهو ما حدث عند الانتقال من القيصرية إلى الشيوعية إلى الجوربا تشوفية.. وليس من الصعب علينا أن ندرك أنه يصعب على الإنسان سوى أن ينتقل من عبادة المبدأ إلى عبادة الدولار دون أن يفترط في العبادة الجديدة سواء كان هذا الإفراط، عن اقتناع أو عن طموح أو لأنه من طبائع المعبود الجديد.

ولو أن النظام القيمي الموازي للتغيرات السياسية كان قد هيا الناس لعبادة الدولار لانتبه الناس جميعاً إلى اللصوص والمرتشين والأفاقين وتجار السوق السوداء وأرباب العمولات ووضعهم في حجمهم المناسب الذي لا يتيح للفساد إلا هامشاً ضئيلاً، ولكن الجوربا تشوفية، للأسف الشديد صورت للناس أن المصارحة والمكاشفة ستكفل التغيير، واستنامت الجماهير إلى الاعتماد على المصارحة، وكأنها كفيلاً بإعادة البناء بينما الحقيقة أن التغيير عملية إيجابية (وليست سلبية) كما أن المصارحة مطلوبة بالحاح في كل خطوة من خطوات إعادة البناء، وإلا فإن البناء نفسه لن يستعاد..

وللأسف الشديد فإن نتائج أفكار جورباتشوف قد تقلصت إلى قدر كبير من الهدم دون البدء في إعادة البناء، وقد ر ضئيل من البناء، وقد أكثر ضالة من الاستفادة من المصارحة.. وبالطبع من النقد الموجة إلى السياسات التنفيذية التي تمضي ولا بد لها من أن تمضي في الطريق المتاح، لأن الحياة نفسها تمضي.

أما الأزمة الثانية التي تواجهها روسيا فهي غياب الفعاليات القادرة على التغيير ، وربما تمثل هذه الأزمة بالذات أهم مشكلات الشعوب حين تواجه أزمات الانتقال التي تعقب قرارات التغيير أو اختلاف التوجهات أو الهزائم العسكرية أو الأزمات الاقتصادية .

وسأذكر القراء بمثل بسيط يعرفونه جميعا هو اعتماد القوات المسلحة المصرية بعد هزيمة ١٩٦٧ على المجندين من خريجي الجامعات الذين كانوا من أبرز جنود النصر في حرب ١٩٧٣ المجيدة ، وقد كان هؤلاء بمثابة الكتلة الكبيرة في العنصر البشري الذي استطاعت الأمة أن تنتقل به من حالة الهزيمة إلى حالة الانتصار .

وقد علمتنا دراسة النظم الإدارية ودراسة التاريخ أنه بدون الاعتماد على كتلة كبيرة من عنصر بشري قادر على أداء حقوق التغيير والقيام بها تفشل معظم سياسات التغيير تماماً .

ويبدو واضحا أن روسيا لم تنتبه بالقدر الكافي إلى تخريج أجيال جديدة قادرة على تحقيق الإنجازات في حقول الانتاج بعيداً عن الشعارات والواجبات الحزبية والأمراض الاجتماعية التي تنشأ بعد طول تولى حزب واحد للسلطة وجمود بل وتآكل ثم تحرض وتدمر كوادرها هذا الحزب .

ولو أن روسيا كانت قد بدأت في هذه الخطوة منذ ١٩٨٩ (على سبيل المثال) لكان عندها اليوم خريجو عدد كبير من دفعات كاملة من الجامعات تستطيع أن تسد بهم الفراغات في كل مواقع العمل الحكومي في جميع أنحاء الدولة ، ولكن الواضح أن روسيا قد اضطرت إلى البقاء في أسر القديم، وأنها ظنت أن القديم بحكم خبرته قادر على تحويل القبلة مع أن هذا ضد طبائع الأشياء .

وعلى الرغم من هذا كله فإن التعافى بات واضحاً حين اقتنعت روسيا أن وجود رئيس وزراء شاب ليس كافياً بمفرده للتحول المطلوب .. وظهرت الجوانب الكثيرة التي قصرت الرؤية الفوقية عن الالمام بها .. وهكذا أصبحت روسيا وقد أو شكت أن تصل بالفعل إلى الحالة التي يقال عنها في أدبيات التاريخ إن أولى مراتب الكمال هي الشعور بالنقص.

(٣)

ونأتى إلى الأزمة الثالثة التي تواجهها روسيا اليوم وهي انفتاحها الزائد والمبكر على العالم ، واني لا اعتقد أن روسيا في حاجة إلى أن تجتهد لفترة خمس سنوات في البقاء بعيداً عن أعين العالم التي لا ترحم، وبعيداً أيضاً عن تلك الأيادي التي تأتي زاعمة أنها تقدم الخير بينما هي تنهب ما في روسيا من تراث إنساني متمثل في الأعمال الفنية بل في المعادن النادرة ، بل في المواد الخام على صعيد ثالث ... ولربما نذكر على سبيل المثال ما يعرفه المشتغلون بالطباعة من أن سعر الورق في السوق العالمي ظل ثابتاً في السنوات السابقة لمدة طويلة نسبياً بحكم توافر المخزون الروسى من لب الورق ... حتى نفذ هذا المخزون الضخم كله فارتفع السعر العالمي للورق فجأة !!

ومن العجيب أن معاملة الولايات المتحدة الأمريكية لروسيا لم تختلف عن معاملتها للدول الصغرى ، فلا هي ساعدتها على بناء مؤسسات خدمية ولا على تجديد مصانع ولا على تطوير تكنولوجيا ... وإنما اكثفت الحكومات والإدارات الأمريكية المتعاقبة بأن قدمت لروسيا صورة مكررة من المعونة الأمريكية المعروفة التي تقدم إلى مؤسسات أمريكية لكي تنفق على خدمات أمريكية وهمية وذلك من قبيل تأليف كتاب عن تحول روسيا إلى اقتصاد السوق، أو عقد ندوة عن حقوق الانسان ... وما إلى ذلك من

التعسف الامريكى فى تقديم المعونة الكفيلة بتفانم الأزمات فى البلاد التى تقدم اليها ،
أو بجل المشكلة بمشكلة أضخم منها .

ولعل أصدق تصوير لطبيعة هذه المعونات هو أنها لاتعطى أبداً لمن يستحقها فعلاً
ولا حتى ظاهراً حتى إنها لاتقدم لمتسولى الشوارع، الذين لا يصعب على أحد
معرفتهم، مالا ولا طعاماً ولا ثيابا ولا دواء ولا غطاء وإنما تعطيمهم لافتة جميلة من
البلاستيك الامريكى مكتوباً عليها بلغة أمريكية وبحروف امريكية اسم المتسول ورقمه
تحت عنوان ، مشروع برنامج المعونة الأمريكية لحصر المتسولين فى شوارع
العاصمة، .

وبين كل أسبوع وآخر يأتى الخبراء الامريكيون ليقيموا فى الهلاتن والشراتن
وليطمئنوا على أن اللافتات فى أماكنها على رقاب العباد ، ولكن ضميرهم الحى مع
هذا كله لايمنعهم من الاعتراف فى تقاريرهم للحكومة الأمريكية بأهمية وضرورة
وحتمية السرعة فى تغيير البلاستيك الذى صنعت منه اللافتات لأنه أصبح يصاب
بالقذارة بسهولة !! .

وفى نهاية كل عام ينعقد مؤتمر ضخم تنلى فيه بحوث مستفيضة تناقش قضايا من
قبيل مدى النجاح فى مشروع برنامج المعونة الامريكية لحصر المتسولين فى شوارع
العاصمة ، ولا يجد الباحثون حرجاً من أن يشيدوا بالنجاح العظيم الذى حققه المشروع
وأن يطالبوا بالبده فى المشروع التالى وهو فتح الباب أمام الراغبين فى الاستفادة من
المشروع، أى اولئك الذين يريدون أن يحصلوا على لافتة مجانية لأن اللافتة عند ذاك
سوف تصبح بمثابة الرخصة التى تمنحها الدولة العظمى لممارسة مهنة ممنوعة بحكم
القانون فى عاصمة دولة عظمى أخرى .. ولكن الدولة العظمى الرحيمة تتيحها لأنها
حريصة على أن تصور نفسها أحنّ على الشعوب وحقوقها من حكامها .

وليس هذا بغريب على الحضارة الأمريكية التي سمحت في الثلاثينات بنشأة
الاتحاد القومي للجريمة ، ليأخذ مكانه إلى جانب كل الاتحادات والنقابات ويكون
بمثابة النظير لنقابة المحامين والأطباء ولنادى القضاة ولاتحاد الصناعات ... الخ
وأرجو ألا يندهش القراء من هذه الحقيقة التي ربما يقرأونها لأول مرة .



وعندى أن على روسيا أن تنتبه في سرعة إلى ضرورة قطع هذا الحبل السرى
الذى هو كفيل بتدمير كثير من الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية فى دولة هى
أحوج ما تكون إلى هذه الإصلاحات بعيداً عن زيف المعونات الأمريكية التى تنتقص
من الكرامة، وتضاعف من الاستكانة، ولا تضيف إلى المشكلات القائمة إلا أبعاداً
جديدة .. ومع كل هذا يظل الرئيس الروسى (أياً من كان) دائماً وأبداً فى حاجة إلى
صورة صحفية يعانق فيها الرئيس الأمريكى (أياً من كان) وهما يبتسمان !! .

عالم عربي جديد

بانتقال السلطة من جيل الآباء إلى جيل الأبناء في الأردن والمغرب وسوريا والبحرين وقطر أحست الجماهير العربية بنوع من التغيير فرضه القدر في هدوء، كما أحست بأن رياح التغيير لم تكن بعيدة وإن جاءت في وقتها المناسب دون عواصف أو زوابع وهكذا بدأ عالم عربي جديد يتشكل في هدوء وبدون ضجيج، وبدون ادعاء أبوة أو ريادة للاتجاهات الفكرية التي أرهقت الشعوب دون أن تقدم المقابل، وبعيداً عن صراع الأيديولوجيات والمعسكرات والتحالفات والزعامات، وبدون أناشيد أو قصائد أو شعارات وأعلام طاغ.

ومن نعم الله سبحانه وتعالى أن الخطوات التنفيذية في هذا الصدد وفي هذا الإطار تمضى إلى الأمام بطريقة هادئة لكنها حثيثة.

ومن حسن الحظ أن ملامح العالم العربي الجديد ملامح حقيقية ومرتبطة بجذور الماضي والواقع والقيم السماوية الرفيعة، بل ومشتبكة بالمستقبل العالمي الذي تبلورت صورته الكلية لكل الناظرين، ويتضح لكل مراقب مدى تأصل وتماسك هذه الملامح، وذلك في مقابل الملامح الهشة المصطنعة التي حاول منظروها فرضها وظنوا أنهم قادرون على هذا الغرض في غفلة من الزمان، وكانت النتيجة معاناة العالم العربي

من الانقسام ثم من الهزيمة التي لايزال ندفع ثمنها ، بل مازالت بعض بومات سوداء القلب امتد بها العمر تحاول- دون حياء- أن توهمنا أننا نعيش السواد بسبب غيابهم عن صياغة الآراء ويتناسى هؤلاء حقيقة مسئوليتهم عن أزمة العالم العرب المعاصر، بل يتبجحون فيصورون السواد الذي جلبوه لنا وعلينا وكأنه هو البياض الناصع، ومن حسن الحظ مرة ثانية أن أحداً لم يعد يعير صيحات هذه البوم أى التفات مهما رفعت من درجة الإثارة فى العناوين والأرقام، بل أصبحت أصوات البوم هذه تختص بمكان ثابت فى بعض الصحف المعنية بالإثارة على اختلاف درجة مصداقيتها.

أما ملامح العالم العربى الجديد فتتمثل فى نظرى فى :

□ (أولا) الجدية فى مواجهة الواقعية السياسية:

وقد اتضح هذا من موقف العالم العربى من نتائج مفاوضات كامب ديفيد الثانية فيصرف النظر عن نعيق بوم المتشائمين، فان رد الفعل العربى سرعان ما تبلور فى ثلاثة اتجاهات غالبية كانت كلها لحسن الحظ تمثل الجدية بصورة أو بأخرى.

ويكفينى أن أشير إلى بعض مظاهر هذه الجدية:

لـجدية الاستشهاد التى عبر عنها الأمين العام لحزب الله حسن نصر الله حين هدد صراحة وعلنا بنسف السفارة الأمريكية إذا ما انتقلت إلى القدس.

لـجدية التقييم حين وضع العرب على المستويين الرسمى والشعبى ما تم وما لم يتم فى كامب ديفيد الثانية فى إطاره الصحيح.

لـوهناك بعد هذا وقبله جدية رد الفعل وقد ظهر هذا واضحا جليا فى تصرف القيادة الفلسطينية متمثلة فى ياسر عرفات، وقد أعادت تحركات هذه القيادة بعد فشل كامب ديفيد الثانية إلى الأذهان صورة التحرك الدبلوماسى المصرى المكثف قبل حرب أكتوبر وبعدها مباشرة حين لم تترك الدبلوماسية المصرية موقعا فى الأرض المعمورة دون أن تذهب إليه وتطلعه بكل ما هو ممكن على

مظاهر وشواهد ودلائل التعنت الإسرائيلي، وقد فاجأ ياسر عرفات العالم بأنه يزوره كله بنفسه تباعاً تباعاً دون أن يعلن مسبقاً عن النية في زيارة كل هذه الدول التي زارها، وهي - حسب معلوماتي - أول مرة ينهج فيها ياسر عرفات هذا المنهج المفرط في الدأب على المستوى الدولي، وبأكثر الأصوات انخفاضاً في الوقت ذاته، وقد وجدت إسرائيل نفسها بعد جولة عرفات في وضع دبلوماسي دولي لم تتصور نفسها تنحصر فيه وسرعان ما وضعت خطتها المكثفة من أجل رد الفعل، ولكن بعد أن كان الفعل رغم محدودية قيمته قد تبلور، وأخذ طريقه إلى التنفيذ وترك الانطباعات .

□ (ثانياً) تقاسم الأدوار في التفوق العصري؛

بدأت الحكومات العربية تنتبه في ذكاء شديد إلى أهمية فكرة اختصاص كل منها بدور غائب عن اهتمام الشقيقات، وقد حدث هذا في مقابل السياسات العتيقة التي كانت تجنح إلى التكرار أو التنافس المحموم في نفس الحقل، والزرع بإمكان السيطرة على انتاج كل شيء من الابرة إلى الصاروخ .

وهكذا واصلت الكويت نجاحاتها الثقافية المتميزة، على حين حافظت قطر على الزخم الإعلامي الذي حققته من خلال قناة الجزيرة، ونمت السعودية من اهتماماتها الرياضية بكل ما تعكسه من تربية ونظام، وضربت سوريا أمثلة بارزة في مواصلة سياسات التحول الاقتصادي بتخطيط هادئ واضح ومسبق، واستعادت الديمقراطية في لبنان ازدهارها، وعادت المغرب إلى مواصلة أدوارها الدبلوماسية وبخاصة مع إسرائيل، ونجحت ليبيا لأول مرة في أن تصوراً لنفسها دوراً متواصفاً يكفل لها مكاناً في السياسة الدولية الساعية إلى توفير حلول للأزمات لا الخالقة لها (مشكلة الغلبين)، بل إن البحرين التي ابتليت بكارثة إنسانية مروعة نجحت بدرجة كبيرة في مواجهة

المشكلات الناجمة عن الكارثة، وعلى المستوى العاطفى كرس أمير البحرين هذا النجاح بقدمه بنفسه إلى مصر لتقديم واجب العزاء فى ضحايانا من الشهداء.



□ (ثالثاً) بلورة الأمل فى الانتظام؛

تنبئ الاتفاقات الاقتصادية المتعددة التى تم إقرارها فى الفترة الماضية عن رغبة أكيدة لدى الحكومات والخبراء فى وضع كل نشاط بشرى فى الإطار المنتظم الذى يكفل استمرار النشاط فيما بعد بصورة روتينية بعيداً عن الحاجة الملحة والمتجددة إلى النوايا الحسنة، أو الأوامر الحماسية، أو الحملات الدعائية وليس من شك أن كل انتظام يتحقق فى اللقاءات يؤدى بالتبعية إلى الانتصار للهدف القومى.

ولكن أهم الخطوات فى نظرى كانت القرار، الشجاع، الذى اتخذ فى هدوء فى اجتماع الجامعة العربية وهو القرار الذى تأخر أكثر من خمسين عاماً، أقصد القرار الخاص بأن تعقد القمة العربية بصورة سنوية فى مارس من كل عام وحتى إذا لم يحضر القمة فى الدورات الهادئة إلا نصف الرؤساء، فإن الانتظام فى عقد القمة يمثل فى حد ذاته أكبر صمام أمان كفيل بتكريس الجدية والأمل فى الانتظام، وتنمية العلاقات الثنائية إلى أقصى حد ممكن من خلال لقاء ينعقد أوتوماتيكياً، ولا ينتظر انشراح الصدر للدعوة إليه، فضلاً عن ضمان عدم تراكم المشكلات أو على الأقل ضمان عدم تراكم آثارها الجانبية.

المسلمون على مائدة العولمة

- القدس والدبلوماسية الإسلامية
- العراق في الفكر الأمريكي
- جنوب السودان .. إلى أين؟
- السودان والمساعدات الأمريكية القادمة

القدس والدبلوماسية الإسلامية

يحلو لبعض الخبثاء أن يقولوا إن مشكلة القدس تكمن في مسئولية المسلمين عنها ووجود بعض مقدساتهم فيها، ولو أن القدس كانت مسيحية صرفة أو يهودية صرفة ماجرؤ أحد على أن ينتهك مقدساتها على نحو ما تفعل حكومات إسرائيل متعاقبة منذ ١٩٦٧ وحتى الآن. ومع ما في هذا القول من غرابة فإنه لا يخلو من بعض الصواب الذي أثبتته الأيام على مدى الفترة الماضية، ويبدو لى أنه لابد من مقدمات سريعة قبل الدخول إلى جوهر الموضوع.

المقدمة الأولى: أن المسئول الأول عن ضياع القدس طيلة أكثر من ثلث قرن كانت نكبة ١٩٦٧، ومن ثم فإن جزءا كبيرا من المسئولية عن القدس يقع على السياسة المصرية على وجه التحديد، ومن حسن الحظ أن السياسة المصرية تحس بهذه المسئولية وتمارسها بصورة متميزة من الحكمة، بل إنها تمارسها دون أن تعرج كثيرا على لوم الحكومات العربية والإسلامية على أنها لم تستثمر ما كانت السياسة المصرية نفسها قد حققتة فى كامب ديفيد الأولى فيما يتعلق بالقدس، ويتناغم الأداء المصرى دون ادعاء بأن ما حدث كان يمكن تجنبه..

وهذه على كل حال صورة من صور أداء متميز عاقل.

المقدمة الثانية: أن الأدوات التي ساعدت على وضع القدس وانتفاضة الأقصى في الوضع الصحيح أو قريبا من الوضع الصحيح في بؤرة الاهتمام الدولي، كانت أدوات غربية، ولم تكن للأسف الشديد أدوات عربية أو إسلامية، وعلى سبيل المثال فإن الصورة التي فجرت التعاطف الإنساني مع الشهيد محمد الدرة وأمثاله من الشهداء الفلسطينيين تم التقاطها وتصويرها بكاميرا القناة الفرنسية الثانية، وليس بكاميرا قناة الجزيرة، ولا الفضائيات العربية التي قاربت المائة، وصحيح أن المصور فلسطيني لكن العبرة في البداية والنهاية بالإدارة، فلو أن نفس المصور يعمل في قناة عربية لكان عليه أن يبقى في ساحة طويلة من أخذ موافقات رؤسائه، وحساب بدل السفر، وإخلاء الطرف قبل أن يسافر لمثل هذه المهمة بورقة صفراء لا بد أن يوقعها رئيس التلفزيون أو وزير الإعلام نفسه (!!) وقل مثل هذا عن تغطية شبكة الـسي. إن. إن، وغيرها.

والخلاصة أنه يمكن القول بأن العوامل الإعلامية المساعدة على إبراز عدالة القضية الفلسطينية جاءت من أطراف لا تنتمي المسألة إليها، وربما كان الدليل أن الصحف عندنا لم تهتم بالصورة في أول الأمر ولم يفجر هذا الاهتمام إلا حديث الرئيس مبارك نفسه بما عرف عنه من حس إنساني وسياسي.



المقدمة الثالثة: أن ما حدث وما يحدث على أرض فلسطين منذ بدأت انتفاضة الأقصى لم يكن أمرا بعيدا عن التوقع، فقد حذر منه كثيرون، منذ ما قبل نهاية كامب ديفيد الثانية، ومع هذا فإن أحدا لم يحسب حسابه، وأنا لا أقصد سياسيا إسرائيليا أهوج كشارون بكل ما هو معروف عنه من اندفاع الدب القاتل، ولكني، على النقيض، أقصد الجانب الإسلامي الذي لم يضع حتى الآن الخطة الإعلامية والدبلوماسية الذكية التي من المفترض أن تواكب الانتفاضة متى بدأت الانتفاضة (وذلك لأن الانتفاضة بطبيعتها تتجدد من حين لآخر).

ومن الملاحظ أن ردود الفعل لدى القادة السياسيين الفلسطينيين كانت يومية (على أسرع تقدير)، ومع وجود عذر واضح لهؤلاء في مثل هذا اللهاث وراء الأحداث على نحو ما نلمس من أحاديثهم في اللقاءات التلفزيونية العالمية التي تتكرر مع كل مظهر من مظاهر قسوة ممارسات الإسرائيليين وغطرستهم، إلا أنى كنت أعتقد أن التجربة التي مر بها الفلسطينيون في الانتفاضات السابقة كانت كفيلة بوجود برامج مؤسسية على مستوى الإعلام الإسلامى لاستثمار مثل هذا الكفاح النبيل. ولا ننسى فى هذا المجال أن هناك منظمة قائمة الفعل لاتحاد إذاعات الدول الإسلامية، ويمكن لها أن تخطط لحملة إعلامية وتطرحها على السلطات الإسلامية العليا طالبة التمويل.

ومع هذا فإن الدور الفلسطينى فى تحريك مثل هذه المنظمات رغم عضويته فيها لا يزال غائبا، أقول هذا مع إيمانى العميق بقسوة الظروف التى يعانىها القادة الفلسطينيون، لكنى لا أزال أظنهم أقوى وأقدر من كل هذه الظروف.



بعد هذه المقدمات فإنى أعتقد أن الدور الغائب فى الانتفاضة ليس إلا الدور الإسلامى، ومنذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما تشكلت لجنة القدس، وقد جاء تشكيلها كرد فعل للاستنفار الإسلامى الطبيعى الذى حدث حين أقدم صهيونى مخبول (أو موصوف بالخبل) على إحراق المسجد الأقصى، وقد كان هذا التصرف الأخرق بمثابة إنذار واضح للتنبية على الوضع الحرج الذى أصبحت القدس على شفا معاناته من حين لآخر، ومن الإنصاف أن نذكر أن لجنة القدس اجتمعت وانفضت، مرة بعد أخرى، وكانت حاضرة على الدوام، لكن دورها الحقيقى ظل يتضاءل حتى إذا حلت الانتفاضة الأخيرة التى هى انتفاضة الأقصى وانتفاضة القدس، افتقدنا لجنة القدس تماما، وذلك على الرغم من أن الصراع أصبح يعتمد فى تغذيته الإعلامية أو وقوده الإعلامى على أن فى المساس بالقدس مساس بمشاعر المسلمين.. وأن الانتهاك بالأقدام شأنه شأن الحريق وشأن الحفر تحت المبنى.

ومن الواضح أن الدرس الأول الذي أفرزته انتفاضة الأقصى هو ضرورة البحث عن الصيغة الفاعلة للدبلوماسية الإسلامية القادرة على التجدد بأقصى سرعة ممكنة، فمن العجيب أن خافيير سولانا حضر مؤتمر شرم الشيخ كممثل للمجموعة الأوروبية، على حين لم يحضر ممثل للمجموعة الإسلامية، مع أن المؤتمر عُقد على أرض المسلمين ومن أجل ثالث مقدسات المسلمين وأولى القبلتين، وربما كان التساؤل: هل يقود حضور مندوب المجموعة الإسلامية مثل هذا المؤتمر إلى الالتزام بالتزامات محددة؟ والجواب: ولم لا، خاصة أن معظم هذه الدول تشارك بفاعلية من خلال المفاوضات متعددة الجنسيات، بل وتتولى تمويل تكاليف السلام في النهاية.

ومع أن المؤتمر الإسلامي والمنظمات الإسلامية الأخرى تفتقد حتى الآن الجهاز الدبلوماسي الكفيل بالاستجابات اللحظية بناء على سيناريوهات وسيناريوهات بديلة سابقة الإعداد، فإن حل هذا المشكل ليس بالأمر الصعب، ويبدو أن الأمر في حاجة إلى قدر من الوعي الإعلامي بحدود المنظمة وأعضائها ونشاطها وآليات عملها، وهي أمور لا تزال غائبة عن الإدراك العمومي لجماهير المسلمين، ولا يكاد أحد يعرف - على سبيل المثال - على مَنْ تحل الرئاسة العالية أو القادمة، ومع هذا فإن الدور المطلوب من أي بناء هيكلي يمثل كيان الدبلوماسية للدول الإسلامية أصبح يفرض نفسه وبصورة لا تحتمل الهروب ولا التأجيل ولو أن منظمة ما لم تسطع القيام به على النحو الأمثل فمن الأجدى أن تطور نفسها أو أن تتحول إلى صبغة أخرى أكثر قدرة على تحقيق الأهداف الإسلامية في عصر حريص على تحقيق أهداف الجماعات الصغيرة.. فما بالناس باكبر جماعة على وجه الأرض؟



ولكن إلى أين تسير الأمور؟

كيف ستنتهي أزمات بيت المقدس وانتفاضاته ومعاناته؟

من المهم، كما نعرف، أن يكون تصور مستقبل الأزمة مسيطراً على الاداء الدبلوماسي الإسلامي وإلا فستكون النتيجة أن يقتصر هذا الاداء على مهمات وتحيات ومجاملات فحسب.

ولست أجد من حقى أن أشغل القارىء بتصوراتي للقضية الفلسطينية فقد فصلتها تماماً فى كتابى «الفلسطينيون ينتصرون أخيراً» ولكنى أكتفى هنا بأن أشير إلى أن نظرية التاريخ الطبيعى التى أومن بها، تقول فى بساطة وحسم: إن القدس لنا، والأرض لنا، لأننا احترمنا الأرض والمقدسات وكل ما هو مقدس. ذهب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) بنفسه إلى الكنيسة وأعطى العهد والتزم به، وكان من الذكاء بحيث أعلن حفاظه على حقوق الآخرين وجعله هذا الحفاظ يؤجل صلته مع أن موعدها كان قد حل.. فى المقابل فإن قائدا عسكريا عرف (على مدى عمره الطويل) بأنه أخرق وأحمق أبى على نفسه إلا أن ينتهك الحرمات ليشعل النيران.



وليس من شك أن من حسن حظ الإسلام والمسلمين والعرب والفلسطينيين أن مستوى قيادات عدوهم انحدر حتى أصبح فى مستوى نتانياهو وشارون.. وقد قاد الانحدار باراك إلى حيث سقط وهو أقرب إلى زميليه أو إلى طريقهما!

العراق فى الفكر الأمريكى

الشائع عن العقلية السياسية الأمريكية أنها عقلية مؤسسات، وهذا صحيح، لكننا فى عالمنا العربى نفهم هذه العبارة فهما قاصرا إذا ظننا أنه لا مجال للفكر الفردى فى صياغة هذه العقلية، بينما حقيقة الأمر أن عقلية المؤسسات تعلى من قيمة الفكر الفردى بأكثر مما تعلى منه عقلية الزعامات الفردية.

قد يبدو هذا التفسير البسيط صعب التصديق، لكنه فى الحقيقة والواقع والتجربة هو عين الصواب.. ودليلى على ما أقول هو أنه فى ظل حكم الفرد لا تصبح هناك قيمة للفكر الفردى على الإطلاق، حتى ولا لفكر الزعيم أو الدكتاتور نفسه، إنما الصوت الهادر للشعارات القديمة هو الأعلى، أما فى ظل حكم المؤسسات فإن الفكر الفردى يجد فرصة مذهلة لخدمته وتقويته وتهذيبه وصقله وتطويره وتكبيره، ثم - وهذا هو الأهم - لتنفيذ هذا الفكر وإخراجه إلى حيز الوجود مدعوما بقوة المؤسسات التى تتبناه. يحدث هذا فى الطب وفى العلم وفى الاقتصاد وفى الاجتماع، ويحدث بأكثر من هذا كله فى السياسة!

ودليلى على أنه يحدث فى السياسة ليس أمرا واحدا فقط، لكنها أمور كثيرة بدأت تفرض نفسها منذ تدعمت روح المؤسسة فى تسيير السياسة الأمريكية الخارجية، وقد

ظهر هذا واضحا في أزمة كوبا، وفي حرب ١٩٦٧، وفي الخلاص من مأزق فيتنام، وفي انفراجة العلاقات الصينية - الأمريكية، وفي حرب الخليج الأولى، وفي حرب الخليج الثانية، وفي مشروع حرب الكواكب... إلخ.

في كل هذه المواقف الاستراتيجية كانت هناك روح المؤسسة الأمريكية، لكن هذه الروح كانت تستلهم أفكارا فردية يملك أصحابها الدلائل على انتسابها لهم وتعطيهم المؤسسة حقوق استغلالها، ومقابل الانتفاع بها، بل ترتفع بأقدارهم إلى الدرجات التي يصبحون فيها مخططين ومنفذين وقاطنين للثمار في الوقت ذاته..

ولولا عقلية المؤسسات ما كانت هذه الفرص متاحة أمام عدد كبير من الأفراد المشهورين والبارزين أو الخالدين في السياسة الأمريكية المعاصرة.

هذه المقدمة ضرورية لفهم موقف الأمريكيين من العراق في ٢٠٠٢ أو في ٢٠٠٣، وهو موقف ذكي، وإن كنا لم نستوعب مقدماته ودوافعه وآلياته على نحو واسع، ولست أستطيع أن أزعج أي محيط بكل أبعاده ولكني أكتفي بتصوير العمق الذي وراء بعض هذه الأبعاد:

أولاً: نظرية العودة إلى المودة القديمة؛

على حين تظل بيوت الأزياء تطور في الزي الجديد عاما بعد عاما، فإنها في لحظات معينة تعود إلى مودة قديمة وتحببها لأنها ترى أن التجديد بالعودة إلى القديم يصبح أكثر قبولا، وأكثر فعالية، والأهم من هذا أنه يصبح أكثر مناسبة مع الظروف المتغيرة، ويبدو بوضوح أن الأمريكيين يفكرون الآن في استخدام مودات قديمة في معالجة أزمة العراق على الرغم من أننا نظن ونعتقد أن الزمن ربما يكون قد عفا على هذه الأساليب القديمة.

□ وفي هذا الصدد نلمح في التفكير الأمريكي الراهن ملامح اللجوء إلى سياسات من قبيل العودة إلى التفكير في اغتيال الرؤساء أو المسئولين الكبار، لأن مثل هذا

الأسلوب كفيل بإريك الأمور في أى نظام دكتاتورى قائم على عبادة الفرد وعلى مركزية السلطة، ومع أن المخابرات المركزية الأمريكية قد تحجم دورها فى هذا المجال بقانون صدر منذ سنوات، إلا أنها لا تزال من خلال عقليات أو آراء فردية تطالب بصفة مؤسسية بالعودة إلى إباحة اللجوء إلى مثل هذا الأسلوب.

□ على صعيد ثانٍ نلمح دعواتٍ منظمة إلى إعادة الحكم الملكى، وهى نظرية تنتمى إلى تاريخ فرنسا وإلى تاريخ إنجلترا بقدر ما وجدت تطبيقاً نموذجياً على يد الجنرال فرانكو فى أسبانيا.. كما أنها أصبحت الآن تجد نوعاً من التمثيل بها فى جوهر النظام الجمهورى العراقى نفسه.

□ على صعيد ثالثٍ نلمح دعواتٍ منظمة إلى التقسيم غير القائم على القوميات، لأن التقسيم القائم على القوميات يضمن نوعاً من حياة التقسيم نفسه، أما التقسيم بطريقة «خطوط صينية أو طبق البقلاوة»، فيضمن استمرار وتجدد النزاعات باستمرار، وهى النظرية الإنجليزية القديمة التى أثبتت نجاحات مذهلة ومروعة فى زرع بذور فتن مستمرة تضمن بقاء الوضع مشتعل على الدوام ومن ثم الاعتماد على (بريطانيا) فى الانتصار لهذا الجانب أو ذاك.

□ على صعيد رابعٍ نلمح دعوات ذات بصمات بريطانية قديمة أيضاً تنادى بالدعوة إلى تطوير التقسيم الهندسى للدول إلى وضع يكون الحاكم فيه من الأقلية، على حين تكون الحكومة من الأغلبية.

ويمثل هذه الأساليب المختلفة، وهى عديدة، تتعامل الولايات المتحدة الأمريكية الآن مع الوضع القائم فى العراق من خلال آليات مختلفة تقوم بها مؤسسات مختلفة ومتعددة الطابع بطريقة التناوب والتعاقب فى عرض الخيارات، وعلى كل راغب من أهل العراق أن يرضى نفسه بتبنى الولايات المتحدة الأمريكية لأمانيه حتى لو بدا له أن الآخرين يحظون أيضاً بتقبل الولايات المتحدة لأفكارهم وتبنيها لأمانهم.

والشاهد أن أحداً من العراقيين الآن لا ينفى أن الولايات المتحدة تحقق له ما يريد.. حتى الرئيس صدام نفسه الذى يعرف أن الفضل فى بقائه فى موقعه يعود إلى

عقلية أمريكية شيطانية قدرت أن الفائدة من بقاءه تفوق الفائدة من رحيله .. وهو فكر شيطاني لا يتوصل إليه الإنسان المحكوم بغرائز النصر والتخلص من العدو، وإنما يتوصل إليه بالسليقة «الشيطان» الذي يبتغى بقاء الضحية على الدوام، والشيطان هو وحده الذي يفكر بمثل هذه الطريقة .

وهكذا فمن الممكن أيضا أن تعود أمريكا في معاملتها لأزمة العراق إلى مودة قديمة من قبيل إبقاء صدام سنوات أخرى ذليلا منتكسا لكنه قادر على إذلال العراقيين من أجل بيع النفط مقابل الغذاء في الظاهر، ومقابل سلاح القهر في الباطن .

ثانياً: نظرية استهلاك الشكوك فيه واستبقاء المضمون

في حقبة من الحقب كان الاقتصاديون الكبار ينصحون البلاد النامية بتصنيع خاماتها حتى ترتفع عوائدها، وكان يقال - على سبيل المثال - إن طن القطن إذا حلج ارتفعت قيمته إلى الضعف، على حين لا تكلف قيمة الحلج إلا ١٠٪، وهنا تحقق الدولة النامية ٩٠٪ كقيمة مضافة نتيجة خطوة صناعية واحدة، فإذا أجريت خطوة صناعية تالية وهي خطوة الغزل ارتفعت قيمة الطن مرة أخرى، وإذا أجريت خطوة صناعية ثالثة وهي النسيج، زاد الارتفاع، وإذا أجريت خطوة صناعية رابعة لتحويل النسيج إلى ملابس، زاد الارتفاع في القيمة المضافة للمرة الرابعة إلى أربعة أضعاف .. وهكذا .

وقد طبقت نفس هذه القاعدة الذكية أو القديمة في نكائها على البترول، وأجرى التكرير والتقطير والصناعات البتروكيميائية وحتى صناعة الأنسجة من البترول، لكن كما هي العادة ظهر علماء اقتصاديون أكثر براعة، وقد قال هؤلاء بنظرية مؤداها أن بقاء البترول في باطن الأرض وعدم استخراجها ربما يكون أكثر عائدا بكثير من استخراجها وتصنيعه، وذلك لأن الادخار أفضل في كل حال من الاستهلاك .. وجاءت فترة الارتفاع المضاعف للأسعار لتؤكد على هذه النظرية في ظل قفزات جنونية في الأسعار .

ولما كانت الدول العربية تعتمد على عائد البترول في تمويل خطط التنمية، فإنه لم يكن من الممكن أن يتم تنفيذ مثل هذه النصيحة بصورة مطلقة، وهكذا تم الأخذ بها بصورة جزئية تمثلت في تقليل الاندفاع إلى بيع البترول، وظهرت نظرية التقييم الدائم والدائب لقيمة الاحتياطي.

أما في الدول الصناعية، وحيث لا يمثل الاعتماد على النفط في خطط التنمية قدرا كبيرا، فقد أمكن تطبيق هذه النظرية بحذافيرها في الولايات المتحدة وأمثالها، ولا تزال مثل هذه الدول تحافظ على المخزون في باطن أرضها وتحت بحارها، بينما هي تشتري لاستهلاكها اليومي بترول العرب وأمثالهم.

وكعادة كل نظرية فلا بد من التطوير، وبحكم عبقرية العقل البشري فإن التطوير الجديد عند الأمريكيين لهذه النظرية يتمثل في العمل على استنزاف بترول العراق وأمثاله من دول القلاقل، والحفاظ نسبيا على البترول في الدول الأقل إقلاقا..

ولهذا السبب يتم الآن عمل دائب على استنزاف بترول العراق على ثلاثة محاور:

□ الأول: هو تمويل العراق نفسه لخطته العسكرية الدفاعية والهجومية على حد سواء.

□ الثاني: هو تمويل العراق للغذاء في ظل غياب خطط تنمية كفيلة بتوفير غذاء محلي، وفي ظل انشغال الأيدي العاملة في الاستعداد من أجل الحرب بدلا من الغذاء.

□ الثالث: وهو الجديد الذي ينادى به أمريكيون محترمون الآن هو وضع اليد، ولا يستغرين قارئ من نظرية وضع اليد هذه، فلن تكون بمثابة استعمار جديد، لكنه شيء نعرفه نحن في مصر بصفة خاصة، فعندما تكلف شركة مقاولات كبيرة بمشروع كبير فإنها تستولى بالتراضى مع السلطات الحكومية المحلية على قطعة أرض كبيرة تمون فيها مواد البناء والآلات والأفراد.. إلخ، وتطيل الشركة في وضع يدها على هذا الموضع بإنشاء خلطات مواد البناء على سبيل المثال ومحطات التنقية والفرز ومخازن المعدات.. إلخ، ومع الوقت تصبح هذه الأرض

مكا لشركة المقاولات بوضع اليد، فإذا كانت هذه الأرض من أراضي طرح النهر أو طرح البحر وتتيح مزروعات أو فواكه وخضرا فإن الشركة تستولى على هذا الإنتاج بحكم استيلائها على الأرض ذاتها.. وهذا ما سيحدث في حقول البترول العراقية على وجه التقريب.. بل على وجه التحديد حسب سيناريوهات فكرية أمريكية.. ستعسكر الجيوش على فوهات حقول البترول ولن تدخل شركات استخراج البترول إلى هذه الحقول إلا من خلال موافقة عسكرية أمريكية.. وهكذا يصبح هناك استعمار انتقائي selective لا يكلف نفسه احتلال الوطن كله مكتفيا بسيطرة محكمة على حقول البترول.

وهكذا تحتفظ أمريكا بما في جيبيها العلوى والسفلى من بترول وطنى أو من بترول دول مستقرة أو من بترول عراقى يباع من أجل تمويل الغذاء والحرب على حد سواء، وتستهلك بعض بترول بعض مناطق العراق الذى وضعت يدها عليه بلا مقابل.

ثالثا: نظرية النصر بلا حرب؛

تعتمد بعض تطورات وتعديلات هذه النظرية التى بشر بها الرئيس نيكسون بعد اعتزاله السلطة بسنوات طويلة، على فكرة افتعال حرب مضمونة النتائج لتحقيق أهداف محددة سلفا بأقل تكلفة ممكنة، وذلك من أجل تغذية الشعور البشرى بما هو دائم التعطش إليه من صراع ينتهى بتحقيق أهدافه المطلوبة.

لهذا السبب فإن الولايات المتحدة الأمريكية تحارب (فى العراق) دولة منهكة مستهلكة تحت شعار أنها تقود محور الشر، بينما تعلم الولايات المتحدة الأمريكية أن العراق أضعف فى عداوتها لأمريكا وللمصالح الأمريكية من دول أخرى لا تطيق أمريكا وتتمنى لها أياما سوداء كالحادى عشر من سبتمبر.

لكن أمريكا تفضل تأجيل حربها لمثل هذه الدول وتفضل البدء بهذه الدولة المنكوبة

بظروفها، المنهوكة بحروبها السابقة، التي لن تستطيع الصمود بأى صورة أمام الولايات المتحدة.

وبدلاً من أن تخوض أمريكا حرباً صعبة مع إيران أو مع كوريا على سبيل المثال، فإنها تؤثر الحرب السهلة في ظروف مواتية في العراق.. يحدث هذا جهاً نهاراً على حين أن العراق نفسه قد قدم لأمريكا خدمات جليلة لم تقدمها له أية دولة في المنطقة، يكفي أن نذكر بضع خدمات قدمها العراق لأمريكا:

□ فالعراق لم يحارب إسرائيل في الصراع العربي- الإسرائيلي حرباً مباشرة، وهكذا قدم خدمة جليلة لصناعة أمريكا وقاعدتها الإسرائيلية في المنطقة.

□ والعراق خاض حرباً مع إيران بإيحاء وتشجيع من أمريكا، بل وبمساعدة قادة وخبراء أمريكيين، وكانت النتيجة استنزاف الثورة الإسلامية في إيران على مدى عشر سنوات كاملة لولا أن تجرع الخومين السم وأعلن الانسحاب من طرف واحد بحكمة متناهية.

□ وفي خلال هذه الحرب استنزف العراق ثروات عربية ضخمة من أجل تمويل هذه الحرب التي دفعت إليها الأيدي القذرة.

□ وبعد هذه الحرب تطوع العراق بإعطاء أمريكا الفرصة للحلم الأمريكي الكبير بالتواجد في الخليج وذلك بعد اجتياح الكويت.

□ ويفضل حرب الخليج الثانية ورعونة سياسة العراق أنقذ الاقتصاد الأمريكي من مرحلة انكماش وعاد إلى أفضل أحواله.

□ ويفضل بقاء الرئيس صدام حسين في السلطة فقد تمكنت أمريكا من استنزاف بترول العراق في برنامج النفط مقابل الغذاء، كما تمكنت من السيطرة على السياسة العربية لبعض الدول المجاورة من أجل «تجيم البعير».

□ وفي كل هذه الخطوات كان المستفيد الأول هو صناعة السلاح الأمريكية أو الغربية المعمولة ببراءة أموال أمريكية.

□ ويفضل كل هذا العبث الموجه من قواعد أمريكية تأكدت قدرة أمريكا على قيادة النظام العالمي الجديد.

وعلى الرغم من كل هذه الخدمات العراقية (الإجبارية والاختيارية) التي قدمتها العراق للولايات المتحدة الأمريكية، وعلى الرغم من أن نزيه عقول العراقيين لم يصب إلا في مصلحة أمريكا نفسها بهجرتهم إليها قبل غيرها من الدول الغربية.. على الرغم من هذا كله فإن أمريكا لا تجد لاعبا تفوز عليه في مباراة التنس السياسية والاستراتيجية في موسم ٢٠٠٢/٢٠٠٣ إلا هذا اللاعب المنهك المريض، وهي تصوره لجماهير المتفرجين في العالم لاعبا صعبا لأنه غني ويمتلك مضارب تنس جميلة (!!) وكرات قوية عديدة (!!)، كما أن له ماض في اللعب وخبرة به، بينما العراق منهك ومريض، بل مقعد ومشلول الأطراف..

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

جنوب السودان إلى أين؟

في بساطة شديدة وواضحة الدلالة تكرر المباحثات القائمة الآن، بين الحكومة السودانية وأطراف أخرى، على قدم وساق، ما سبق أن أعلنه اتفاق « ماشاكوس » من مدى فعالية الوجود الأمريكي في السودانى ، ويرى بعض المراقبين أن الامر يبدو، وكأنه قد انتهى إلى الأبد استثمار القناع الراديكالى الذى وضعته بعض القوى السياسية على وجه حكومة الخرطوم.

كما يرى بعض المراقبين أنه قد أصبح من الواضح أن النفوذ الأمريكى أقوى بكثير من كل الدواعى إلى الانتماء لدول الجوار سواء فى الشمال أو الشمال الغربى أو فى أى جهة أخرى ، وارتفعت أسهم القائلين بطول عمر التحالف الحاكم فى السودان وبأن تغيرات هيكلية ستأخذ طريقها إلى الاحزاب السياسية التقليدية فى السودان .

وعلى الرغم من كل التحفظات المنطقية التى نفهمها ونقدرها فيما يتعلق بمستقبل السودان، وعلى الرغم من الجزع من وصول النفوذ الأمريكى إلى هذا المستوى من الفعالية والتغلغل، على الرغم من هذا وذاك فاننا لانستطيع أن ننكر بعض الايجابيات التى حققها الاتفاق الاخير وفى على وجه التحديد ثلاثة إيجابيات مهمة .

الإيجابية الأولى هي إعطاء الفرصة لفترة من الاستقرار بعيداً عن الحروب والمناوشات وروح الحروب والمناوشات ، في هذا الصدد يمكن لبعض خطط التنمية الإسعافية، أن تجد وبسرعة فرصتها للتطبيق، كما يمكن استئناف بعض المشروعات القديمة التي بدأتها الحكومة المركزية في جنوب السودان ، بل إن الأهم من هذا وذاك أن تتمتع الحكومة المركزية بإدارات ذكية قادرة على تقديم وتنفيذ مشروعات سريعة الأجل سريعة العائد قليلة التكاليف وأن تنفذها بأقصى سرعة وبأقصى كفاءة في مناطق الجنوب لتؤكد لكل المؤيدين والمعارضين على جدوى الارتباط بدولة سودانية واحدة لها خبرتها ولها قدراتها .

ومع ذلك فإن البعض يتصور إمكان تحقيق مثل هذا الانجاز شيئاً بعيداً عن التوقيع .

وبالإضافة إلى هذا وذلك فاني أتصور أن أولى الأولويات هي ربط الجنوب بالشمال بطريق سريع فعال سواء كان هذا الطريق برياً أم حديدياً ، ونقسيم مشروع هذا الطريق إلى أربعة قطاعات تتولى كل دولة من الدول الصديقة تنفيذ أحدها ، ولعل الشقيقة مصر تكون أول هذه الدول التي لا يستبعد أن تكون منها الصين واليابان وكوريا وفرنسا وانجلترا وألمانيا ، كما لا يستبعد أن تشارك الإمارات والسعودية والكويت وماليزيا بالتمويل .

وأعود لأكرر إن التاريخ قد علمنا أن اتفاقات الهدنة والمراحل الانتقالية هي أكثر الفرص السانحة للتعبير عن التوجهات المثلى والنموذجية ولاثبات حسن النوايا ومقبولية الأهداف في ذات الوقت ، ولا يمنع هذا بالطبع من أن تغير الأطراف ترتيب قواتها وتأهيلها تحسباً لأي نوايا من النوع الآخر يدفع إليها أو يندفع الطرف الآخر .



الإيجابية الثانية هي إقرار القوات المتمردة في الجنوب بسطوة ومكانة الحكومة المركزية ، وقيمة الجهود الدولية سواء كانت أمريكية وكينية، وفي هذا الاقرار الذي

تحول بالفعل إلى اتفاق مكتوب نوع من تسييس قوى التمرد بعد أن كانت مجرد قوات تمرد وحرب عصابات .

والنتيجة الطبيعية لمثل هذه الخطوة تتمثل كما نعرف في نزع فتيل أسلحة المزايدة التي كانت تزايد بها الطوائف المختلفة في الجنوب على بعضها .

ولست من الذين يهون التركيز الحديث عن أن جارنج لا يمثل الجنوب كله، ولا على أن قبيلته ، الدنكا ، منقسمة على نفسها كما أنى لا أحب الانسياق لتحويل الذين يشيرون إلى كثرة فئات الديانات واللغات واللهجات والتوجهات في الجنوب .

وظنى أن كل هذا التناحر والتمزق لا يزدهر إلا بفضل استمرار النزاعات والحروب ، فإذا ما وصلنا إلى نهاية لهذه الحروب فسنجد القوى المتعددة تنحصر في عدد أقل، وسنجد الاتجاهات المتطرفة وهي تنحسر، والمزايدات تتراجع ، ولو أن الأمر كان كما يصوره المهولون لكان من السهل على الحكومة المركزية أن تسيطر على الوضع من خلال ضرب الاتجاهات المختلفة ببعضها ، ولكن الظاهر للعيان أن جارنج لا يزال يمثل ثقلاً استمر طيلة سنوات وبقى عليه أن يثبت أنه رجل سلام أو رجل دولة بقدر ما كان رجل تمرد .



أما الإيجابية الثالثة فتتمثل في تبلور توجهات الحكومة السودانية بما يحميها من نفسها ومن الشعارات ، فلأول مرة منذ سنوات عديدة تعترف هذه الحكومة بالآخر بما في ذلك المجتمع الدولي والادارة الامريكية على نحو موثق في اتفاقات ، وهكذا تتحول صورة هذه الحكومة، العزيزة علينا بالطبع، من حكومة دولة راعية للارهاب وحاضنة لاسامة بن لادن وكارلوس وغيرهما إلى دولة ساعية للسلام ومرتبطة باتفاقات دولية ذات أمد محدد وذات مضمون واضح .

كذلك نجد هذه الحكومة وقد أصبحت تعبر عن علاقتها بالاسلام وتطبيق الشريعة بطريقة محددة بعيداً عن الشعارات والارتباطات بتيارات العنف ، وفي الحقيقة فإن الحكومة السودانية لاتزال حريصة على ارتباطها بالاسلام وشريعته ولكنها في ذات الوقت تجاهر أو تعترف ضمناً بأنها لاتفرض رؤيتها هذه على الآخرين .

وإذا كان الأمر كذلك فان التوقعات كفيلة بأن تفتح أبواب السودان مرة أخرى لنوع جديد من العلاقات الغربية السودانية تكفل خلاص الحكومة الحالية من الأرق الذي يتمثل في مزايدات أحزاب المعارضة، وعندئذ يمكن للحكومة القائمة أن تبدأ خطوات فعالة في طريق ديمقراطية حقيقية أو شبه حقيقية بما يجنبها العزلة الدولية ويكفل لها طول العمر في السلطة وهو هدف ليس ببعيد عن أذهان مثل هذه الحكومة .

ومع كل هذا فان الإيجابيات وحدها لا تكفي، وانما هي بداية لما يجب استثماره من أجل تحقيق أهداف إسلامية أو قومية أعمق أثراً.

السودان والمساعدات الأمريكية القادمة

ربما أصبح في حكم المؤكد عند قطاع يمينى كبير فى الإدارة الأمريكية أن الولايات المتحدة الأمريكية على وشك النجاح فى إقامة دولة من طراز جديد فى جنوب السودان، فهى المؤشرات جميعا تنبئ بأن الحكومة القائمة فى الخرطوم قد سلمت لأمريكا من أجل البقاء فى المستقبل، ومن أجل «السماح» عن أخطاء الماضى متمثلة بصورة خاصة فى احتضان بن لادن ونشاطه.

ومن الواضح لكل ذى عيىن أن الصفقة الأخيرة المتمثلة فى اتفاق «ماشاكوس» كانت لحكومة الخرطوم بمثابة صفقة رابحة بكل المقاييس، فهى تضمن لها مزيداً من البقاء وقدرأ كبيراً من السماح كما أشرنا فى الفصل السابق، وتضمن لها بالإضافة إلى هذا راحة البال من مشكلة مزمنة فشلت هى فى حلها، وإن كانت حكومات سابقة قد نجحت فى حلها تماماً، وتضمن لها رابعا التخلص من «عطف غير مطلوب» من الجارتين العربيتين وهو كما ألمحت الحكومة السودانية مراراً وتكراراً عطف مقدر لكنه غير مرحب به، فضلا عن أنه لا يضمن للحكومة الخرطومىة طول العمر وإنما يجعلها تحت رحمة الآخرين.

وفضلا عن هذا كله فإن الصفقة الأخيرة ربما تضمن لحكومة الخرطوم مستقبلا

باهرا فى المعونات الاقتصادية والتعليمية الكفيلة بمواجهة مخططات حلفائها القدامى الذين أصبحوا الآن شبه أعداء.

ومع هذه النتائج الخمس البارزة فإن حكومة السودان ظهرت وكأنها صاحبة قدرة على المفاجأة من ناحية، وصاحبة قدرة على الإنجاز من ناحية أخرى، لكن قراءة التاريخ تنبئنا للأسف الشديد أن حكومة السودان لن تنال من الدعم ولا من المعونات إلا ما يحفظها تحت خط الفقر لى تواصل الطلب، كذلك فإن حكومة السودان لن تنال من حلفائها الجدد إلا التحقير المتواصل من قبيل ما بدأ بالفعل حين أعلنت مصادر هؤلاء الحلفاء، بكل صراحة، أن الاتفاق قد تم التوصل إليه تحت ضغط شديد ومباشر من الأمريكيين.

على أن ما يهمنى تأمله فى هذا الموضوع ليس هو ربحية الحكومة القائمة فى الخرطوم، وإنما هو مبررات الحكومة القائمة فى واشنطن، فلم يكن من المتوقع أن يصدر كل هذا الاهتمام بالسودان عن حكومة مشغولة تماما بالشروع فى الحرب فى العراق، والانتهاى من أفغانستان، والتفكير فى مواجهة ما تسميه محور الشر!! والتورط فى مساندة شارون.

ولكن هذا ما حدث بالفعل، فقد تمكنت الأجهزة الأمريكية المساعدة [ولا نقول الرئيسية] من إتمام هذا الاتفاق على نحو فاق فى سرعته كل التوقعات.



وعلى الرغم من أن معظم المحللين قد أرجعوا الفضل فى كل هذا التكثيف الأمريكى إلى سبب يبدو وجيها وهو قرب إنتاج البترول فى السودان، إلا أننى أعتقد أن هذا العامل ليس سببا بقدر ما هو نتيجة، ذلك أنى أعتقد أن الولايات المتحدة الأمريكية ستنتج البترول فى السودان أو جنوب السودان لتدعم بها سياستها هناك، فهى تعرف وتدرى مواضع وكميات البترول منذ زمن بعيد، وبوسعها أن تعوق وتؤجل

استخراجه وإنتاجه، وليس هذا بالسبب الذي يدفع سياسات دولة كبرى عندها ما يشغلها على مستوى السياسات الدولية.

أما السبب الحقيقي في رأيي فهو محاولة أخرى، لا أقول فاشلة ولا أقول أتوقع أن تكون فاشلة، ولكني أقول إنني أدعو من الله أن تكون فاشلة، وهي محاولة لإنشاء دولة دينية ذات مذهب مسيحي أمريكي في جنوب السودان!!

.....

يسعى إلى إقامة هذه الدولة تحالف مسيحي محافظ أخذ شأنه يزداد في الولايات المتحدة الأمريكية حتى استطاع اختراق الإدارة الأمريكية الحالية، بل إن زعيم هذا الاتجاه وهو جراهام قد أصبح بمثابة الصديق الشخصي للرئيس الأمريكي الحالي. وتنبئ أفكار هذا التحالف على أهمية التبشير واسع النطاق وأمكانية إنشاء دولة لمثل هذا المذهب في مثل هذا الموقع.

ومن العجيب أن أحدا لم ينتبه بالقدر الكافي إلى العناصر التي تؤكد على هذه الحقيقة فيما تضمنه الاتفاق الأخير في ماشاكوس من إعطاء حكومة الشمال حقوقها الدينية، وهي خطوة تمهد في نعومة وسلاسة إلى إملاء حقوق دينية مماثلة في الجنوب.

ومن العجيب أن الأطراف السودانية نفسها غير واعية لهذا الهدف الخفي أو المستتر الذي تلعب الإدارة الأمريكية من أجله، وذلك إلى حد أن المستشار السياسي لرئيس الحركة الشعبية لتحرير السودان، وهو نفسه وزير خارجية سابق، يتحدث إلى مجلة الأهرام العربي القاهرة (٣ أغسطس ٢٠٠٢) فيذكر في عنوان حديثه بكل وضوح ما نصه: «تنازلنا عن العلمانية».

وفي صلب حديثه يقول منصور خالد ما نصه:

□ عندما يكون الحديث عن اتفاق يحقق السلام وينهى حربا دامت ٢٠ عاما يصبح الحديث عن الريح والخسارة لا معنى له، فالمكسب الرئيسي بالنسبة للطرفين هو إنهاء الحرب.

□ تنازلت الحركة عن تشدها في الإصرار على العلمانية و(تكرس) قبولها بنصوص تتحدث عن تطبيق الشريعة على المسلمين.

□ سيكون جيش الحركة موجودا، وسيتم اختيار الاتفاق الذي يتم التوصل إليه خلال تلك الفترة الزمنية، فإذا اختار الجنوبيون في استفتاء حق تقرير المصير الانفصالي، فسيحدث ذلك دون تجدد الحرب، لوجود رقابة وضمانات دولية.

.....

وهكذا ينزلق الجنوبيون بنعومة إلى ترسيخ وتكريس ما يظنونهم إرضاء للحكومة في الخرطوم وتنازلا منهم من أجل الحل، بينما هذا التنازل لا يصب إلا في مصلحة التبشير المسيحي الأمريكي القادم والذي بات مثلها على أن ينشئ دولة في جنوب السودان ستحتضن في مستقبل قريب بن لادن الأمريكي الحقيقي الذي سوف يكون قادرا على تحطيم كل رمز الحضارة الأمريكية المعاصرة من أجل سعادة زائفة لليمين الأمريكي الشرس الذي يظن ويعلم أنه لا بد من القضاء على الحضارة التي أفرزها الشيطان.

وإذا كان القضاء على بن لادن الإسلامي قد صور على أنه معركة ناجحة فربما لا يكون القضاء على بن لادن الأمريكي وارداً بنفس القدر، لأنه نفسه سيكون أمريكيا ذا نفوذ جبار، ولن يكون ضيفا على أمريكا فحسب.

وأختم هذا الفصل بما يقال في تأمل مثل هذه الأمور:

«وسبحان من له الدوام».

العلاقات الإسلامية في عصر العولمة

- الدين والحرية في إيران
- العرب والأترك والأكراد
- تونس تستعيد هويتها الإسلامية
- نموذج مشروع للتعاون الطبى بين قطرين إسلاميين

الدين والحرية في إيران

يتميز الفقه الشيعي بقدرة فائقة على التطور، كما يتميز بمرونة عملية تتعدى المنطق الجامد والتفكير المجرد إلى حدود لا نهاية لها مادام العقل الإنساني والوجدان المسلم مشتغلا ومتقدما بالإيمان بالخالق جل في علاه. ويؤكد مبدأ «ولاية الفقيه» على هذه المعانى بكل ما يكفله هذا المبدأ من «عصرنة مستمرة للفقه الشيعي»، ومن ثم يتعلق كل إنسان منصف بأمل لا حدود له فيما يمكن للفكر الفقهي الشيعي أن يتصدى به من أجل تبيان وجهة النظر الإسلامية الشيعية تجاه القضايا المستحدثة على صعيد الحياة الدنيا.

ولهذا فإنني أتطلع بكل اطمئنان إلى ما سوف تسفر عنه المناقشات والمداخلات في إيران بين مؤسسات دستورية مستقرة ذات توجهات واضحة وانحيازات معن عنها، وكلى أمل في أن تسفر هذه المناقشات عن قريب عن تأسيس وتكريس توجه إسلامي (واضح، ومحدد، ومعن، ومؤصل من الفقه وأصوله) فيما يتعلق بقضية الحرية بمفاهيمها المتجددة.

وليس من شك في أن دوافعي تجاه هذه الآمال المتزايدة متعددة، فكثير من زملائي من العلماء المسلمين يفضلون العمل في بلاد غريبة بسبب تأكدهم من

الحصول فى النهاية على الحماية التى توفرها السياسات العامة والخاصة التى تلتزم فى البداية والنهاية بحرية الإنسان. ويشمل هذا بالطبع حرية التعبير، وحرية البحث، وحرية النشر، وحرية النقد، وحرية السفر... إلخ، وهى حريات مترابطة ولا يحس بأهميتها إلا الذى نعم بها ثم حرم منها تماماً كما أنه لا يحس بتاج الصحة على رءوس الأصحاء إلا المرضى الذين كانوا أصحاء.

ومن نعم الله على المسلمين المعاصرين أن اليهود لا يزالون موجودين ومتشبهين بكثير من المحرمات والممنوعات، وأن طوائف كثيرة من اليهود قد فرغت نفسها وكرست جهودها للدفاع عن المقدسات اليهودية بكل صور الدفاع الممكن وغير الممكن.. وأياً ما كانت هذه المقدسات وأياً ما كان موقعها من التاريخ، فلا نزال نلحظ عناية اليهود بإضفاء القدسية عليها وإبقاء القدسية محيطة بها.

وقد رأينا عن قريب مدى ما تفعله المنظمات اليهودية فى جارودى وغيره حين يتصدون لتفليد المعتقدات اليهودية حول محرقة النازى، وهو موقف واضح ثابت يظهر للعالم كله أن هناك حدوداً وقيوداً من الممكن أن تفرض حتى على ما هو، بحكم طبيعته، قابل للأخذ والرد.

هكذا فإن المسلم منا فى أى مجتمع دولى يستطيع أن يلجأ إلى المثل الذى تصوره السياسات اليهودية ليسكت أى دعوى توجه ضد ما يسمى بممارسات القيادات الإسلامية ضد الحرية، سواء فى هذا الفتوى بسفك دم سليمان رشدى، والقرار بتحريم الاتصال عبر الإنترنت فى دولة إسلامية كبيرة.



ومبلغ ظنى أن المناقشات التى تدور اليوم فى إيران قادرة على أن تضىء الطريق للمجتمع الإسلامى المعاصر، وتدعم وجهة نظرى هذه ثلاثة عوامل:

العامل الأول: أن المناقشات تدور بطبيعة مؤسسية بعيدا عن كل عيوب المناقشات الفردية، والمزالق التي تقود إليها هذه المناقشات من البحث في مصلحة الشخص وفي تاريخه وفي توجهاته وفي علاقاته، ومن تحميل التوجه الفكري آثارا ثقيلة من هذه النواحي كلها.



العامل الثاني: أن السياسة الإيرانية المعاصرة قادرة على الرجوع إلى المصلحة (أو الحق) والعدول عن الرأي (والفتوى)، ولست أظن مثلا أكثر دلالة على هذا من قرار الإمام الخميني الشجاع بالتوقف عن الحرب العراقية - الإيرانية، وترك الرئيس صدام حسب ينعم كيفما شاء بدعاوى الانتصار..

فإذا أراد القارئ مثلا آخر يرتبط بالثقافة فإنني أستطيع أن أذكره بموقف حكومة إيران الإسلامية من السينما الذي بدأ بداية غاية في التطرف، وفي الوقت المناسب عادت إيران إلى السينما، فلما لقيت الحكومة أزمة في دور العرض لم تجد حرجا في أن تستخدم بعض ملحقات دور العبادة كدور للعرض، ثم يفاجأ العالم والعالم الإسلامي بجوائز السينما العالمية وهي تتوجه لجيل جديد من السينمائيات وجدن بل وولدن في عهد الثورة الإسلامية نفسها.

ولنا أن نقارن هذا على سبيل المثال بما يحدث في مصر بتاريخها الطويل وبما في جهود طلعت حرب وباستوديو مصر وبالصناعة التي كانت في المرتبة الثانية بعد صناعة القطن.. مصر هذه بكل من وما فيها لا تزال ضحية مؤامرات مسئولين صغار، ومستثمرين قصيرى النظر، وسياسات أقل ما توصف به أنها غبية ومغرضة وغير وطنية، والنتيجة أن السينما المصرية تخرج من احتضار مشرف إلى احتضار مؤسف.



أما العامل الثالث الذى يدفعنى إلى القول بأن المناقشات التى تدور فى إيران قادرة على أن تضىء الطريق للمجتمع الإسلامى المعاصر فهو أن أهل الثقافة والفكر فى إيران المعاصرة يتمتعون بالجدية، فهم يناقشون الجزئيات فى حدود أنها جزئيات دون أن يفرشوا الملاءة على نحو ما نفعل نحن فى مصر فى كل قضية صغيرة أو كبيرة نستنفر لها كل الأقلام حتى تصبح القضية كالوباء، وبعد أسبوعين على أكثر تقدير ينحسر الوباء دون أن نصل إلى قضية ..

ومن العجيب أننى استقصيت آمال مجموعة من المثقفين والجامعيين فى قضيتين قريبتين، فإذا بالآمال تنحصر فى أنها ربما تكون فرصة للخلاص من وزير طال العهد بسياساته الفاشلة، بينما كان اعتقادى ولا يزال أن كل من سألتهم يفوقون هذا الوزير قدرة وقيمة واحتراما، ولكن توجههم انحصر للأسف فى تمنى مثل هذه الخطوة، وربما كان الأخطر من تفكيرهم أنى أظنهم على صواب.

العرب والأتراك والأكراد

عادة ما نتناول المشكلات عند تفاقمها واندلاعها ، و عادة ما نتغافل عنها طوال كمونها، ولأنى أؤمن بأن علاج الصحة أجدى وأفضل من علاج المرض فانى أود أن ننتبه إلى ضرورة الاهتمام الحثيث بل السعى من أجل إيجاد دور عربى لحل المشكلة الكردية فى إطار العمل فى الوقت ذاته على تطوير العلاقات العربية التركية .

وثمة ثلاث مسلمات تدفعنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع :

ينبغى لنا أن نؤكد أولاً على ما نسلم به من علاقة الأخوة التى تربطنا بالأكراد وبالأتراك على حد سواء، وأن ننتبه ثانياً إلى أن واجبات إنسانية وإسلامية وتاريخية تفرض علينا أن نتحرك فى سبيل حل المشكلة ، وأن نعى ثالثاً أن الدبلوماسية العربية بكفاءاتها الحاضرة وتاريخها الطويل وإنجازاتها القريبة قادرة على المساعدة فى إيجاد كثير من الحلول فى إطار حل أكثر شمولاً وأقرب إلى تحقيق المصالح للطرف المتعددة فى القضية التى نحن بصدددها .

وفى الاتجاهات الثلاثة السابقة فإن انتفاء المصلحة الوقتية أو المباشرة يرفع من أسهم القدرة على المشاركة بفعالية ونجاح فى تحقيق إنجاز ملموس فى الصراع- الأزمة .

وقبل أن أتناول ما يمكن للدبلوماسية العربية أن تلعبه من خلال الدبلوماسية الرسمية (في وزارات الخارجية) أو البرلمانية أو العلمية (في الجامعات ومراكز البحوث وأقسام اللغات والتاريخ والجمعيات العلمية) فإنني أحب أن أوضح بعض الجوانب في صورة تركيا في الوجدان العربي المعاصر.

ولست أشك أن كثيرين جداً منا لا يخفون استيائهم من موقف تركيا من إسرائيل الذي يقودها مرة بعد أخرى إلى نوع من أنواع التحالف العسكري بينهما كالذي أعلن وحظي بمباركة الحزب الإسلامي حين كان يتولى الحكم في تركيا.

وقد يكون من حقنا جميعاً أن نستنكر مضي تركيا في مثل هذا السلوك، ولكنني أجد من حقنا على أنفسنا أن ننتبه إلى الجانب الآخر في القضية، وهو أن هذا الطريق ربما يمثل الطريق الوحيد أمام تركيا للنفوذ بطريقة غير مباشرة إلى تكنولوجيات الأسلحة الأمريكية والغربية المتوافرة لدى إسرائيل.

وفضلاً عن هذا المأزق الذي يعطى العذر لتركيا فإنه بالمعايير السياسية التكتيكية فإن مثل هذا التحالف يساعد تركيا على احساس بشئ من التوازن المفقود في علاقاتها الخارجية في مواجهة الجبهات المفتوحة حولها في اليونان وقبرص وأرمينيا بل وربما من إيران وسوريا والعراق .

وفي مقام ثالث فإن التحالف الإسرائيلي التركي سيستتبع بطريقة شبه أوتوماتيكية الفوز بمساندة اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، وبخاصة في الصراع مع اليونان وقبرص وأرمينيا، بل في صراع الحلفاء مع المجموعة الأوربية .

وإذا ما استطعنا فهم وتقدير هذه المكاسب الثلاثة التي قد تتحقق لتركيا فإنه يمكن لنا أن نستوعب حقيقة وطبيعة مثل هذا التحالف الذي تلجأ إليه تركيا مضطراً ، والبحر من أمامها ومن ورائها كذلك بينما نحن نحسبها مستندة إلى حائط قوى وميتين .

وأظننا لانستطيع أن ننكر على تركيا مثل هذه الرؤية الاستراتيجية وإن كان واجبنا في الوقت ذاته، يقتضينا أن نبحث لها عن البديل .

ومن المهم أيضا أن نفهم أن تركيا واحدة من دول العالم القليلة جداً التي تشترك بحدودها مع عدد كبير نسبياً من الدول وإذا كانت ألمانيا هي الدولة الغربية الوحيدة التي تشترك بحدود برية مع تسع دول فإن تركيا تشترك بحدود ممتدة بل وحية وناشطة مع سبع دول هي بلغاريا وروسيا وجورجيا وأرمينيا وإيران والعراق وسوريا فضلاً عن أن المياه وحدها هي التي تفصل بينها وبين كل من اليونان وقبرص واوركنيا ورومانيا ومولدوفيا.

ومن حق تركيا أن تشعر على الدوام بنوع من القلق على دفاعاتها وعلى كيانها وعلى مستقبلها ، ولندكر أنها عانت في ١٩٢٠ ، من معاهدة سيفر ، وأنها لم تنج من آثار هذه المعاهدة حتى بعد معاهدة لوزان ١٩٢٣ ، ولندكر أيضا بكل الأسى أن النتائج النهائية للحريين العالميتين اللتين شهدهما القرن العشرين لم تسفر في النهاية إلا عن تدمير الامبراطورية العثمانية (التركية) التي كانت بمثابة دولة الاسلام الأخيرة رضينا أم أبينا.

وقد حدث هذا وتكرس منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ولا تزال آثاره باقية على حين أن كل الإذلال الذي تعرضت له ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية قد أوشك أن يكون جزءاً من التاريخ وأعيدت لألمانيا حقوقها التي كانت قبل الحرب العالمية الثانية.



بعد هذا كله فاني أفضل أن ألجا إلى أسلوب عملي في اقتراح بعض ما يمكن للدبلوماسية العربية بصورها المختلفة أن تساعد في تحقيقه في مساعدة تركيا على النجاة بنفسها من آثار محتملة لتفاهم الأزمة الكردية .

(١) ففي وسع الجامعة العربية أن تقود نوعاً من الحوار التركي - الكردي يقود إلى فهم الآخر، والحوار مع الآخر ، كبديل متنام للمواجهة دون أن يكون الحوار نفسه

ملزما للأطراف أو مقيداً لحركتها أو ملزما لها بالاعتراف بأحقية وجهة النظر الأخرى فى التحقق والوجود على أرض الواقع .

(٢) وفى وسع الجامعة العربية أن تحصل للأكراد على اعتراف تركى رسمى بلغتهم وفى هذا السبيل فان بعض التقديرات تصل بنسبة الناطقين بالكردية إلى اكثر من ٣٠ ٪ من سكان تركيا .. وليس من البدع أن تعترف حكومات قوية بل ودكتاتورية وعسكرية بمثل هذا الحق لبعض السكان فى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها اعتراف شبيه ، بل إن اسرائيل نفسها [بكل ما نعرفه من غطرستها وعنصريتها] تعترف باللغة العربية كلغة رسمية ثانية!! .

(٣) وفى وسع الجامعة العربية أن تقنع تركيا والأكراد فى نفس الوقت ببدء الخطوات نحو تطوير نوع من الإدارة فى سبيل حكم ذاتى محلى ، تنضوى فيه قوات أمن أغلبها من الأكراد فى جهاز الأمن التركى كله ، وذلك بديلا عن الصور المحتملة من تكوين ميلشيات وجيوش محليات أو أقليات وليست التجارب المحيطة بتركيا (ولن أذكر اسماء دول) ببعيدة عن الأذهان .

وسوف يشجع مثل هذا «التكريد الأمنى» تركيا نفسها على التخلي عن تجييش جيوش خاصة لمناطق الأكراد كما أنه سوف يرفع هذا عن كاهل الموازنة التركية أعباء مالية ضخمة يمكن توجيهها بالطبع إلى تنمية المناطق الكردية نفسها .

وحين ينشغل قادة المعارضة الكردية فى إدارة أقاليم بلادهم فانهم سيجدون فى التنمية بديلا أفضل بكثير من النضال السرى والعمل تحت الأرض .

(٤) وفى وسع تركيا بمساعدة حثيثة من دبلوماسية عربية هادئة تعمل على أرض عربية على مدى عامين أو ثلاثة أعوام أن تنمى وترعى وجود هيئة كردية قادرة على المفاوضة ، وعلى تمثيل الحقوق، ثم على تبنى خطط التنمية، وعلى إدارة الواجبات اليومية بديلا عن صراعات لا تنتهى بحكم طبائع الأشياء، وإنما

تتفاقم وتتضاعف بين أجنحة انشقاقية، ثم أجنحة متطرفة، ثم أجنحة أكثر تطرفاً، ثم أجنحة متطرفة بأكثر مما يحتمل التطرف ذاته ! أى بديلاً عن الدائرة المغلقة التي لا يمكن لأحد أياً من كان أن يكسرها كما هو حادث الآن في دولة آسيوية قريبة إلى حد ما من تركيا.



وفي جميع الأحوال فلست أحب أن أصادر على ما يمكن لنا أن نفعله كعرب ومسلمين في هذا المجال، وبخاصة أن خبرائنا الدبلوماسيين والقانونيين والسياسيين والاستراتيجيين يفوقونني خبرة وفهما لكل جزئية من جزئيات هذا الصراع ، ولكني أشعر أنني كعربي مسلم ، وكعربي، وكمسلم مدين للأكراد بكثير جداً من الفضل على مدى تاريخ أجدادي بدءاً من صلاح الدين الأيوبي الذي انتصر للإسلام والعروبة.

وفي الوقت ذاته فإنني، كمسلم، مدين للأتراك بحفاظهم على الدولة الإسلامية لمدة خمسة قرون حتى لو كانوا قد ضيعوها بعد هذا .

ومن ناحية ثالثة فإنني أتمنى لتركيا طريقاً قوياً حقيقياً يرتفع بها إلى دور دولي مرموق يربط بين الإسلام والغرب، ويتيح لها قيادة دول آسيا الصغرى وغيرها فضلاً عن شبه جزيرة البلقان.

تونس تستعيد هويتها الإسلامية

تجربة تونس المعاصرة جديرة بالدراسة لأنها أثمرت منذ الاستقلال في منتصف الخمسينات وحتى الآن دولة عصرية قادرة على التعامل مع العصر بلغته، وعلى تحقيق استقرار اقتصادي واجتماعي ملحوظين، وعلى توظيف مواردها من أجل أهداف واضحة ومحددة.

ومن المدهش أن تونس التي لا تحظى بثراء في الموارد قد وصلت إلى معدلات تنمية مرتفعة بفضل اجتماع عنصرين مهمين هما مواردها البشرية، وسياسات مدروسة وقادرة على التكيف مع الظروف.

وعلى سبيل المثال فقد عيّنت تونس بالسياحة عناية فائقة وصائبة في الوقت ذاته، فهي لم تشغل بالها بالدعاية الظاهرية للسياحة أو بالملصقات والمؤتمرات والندوات على نحو ما نفعل، لكنها وفرت لهذه السياحة بنية أساسية فائقة المستوى من طرق جميلة، وحدائق، وفنادق، ومطاعم، ومعالم، فضلا عن قوانين كفيلة بحماية السائح من أخطاء الإداريين والموظفين قصار النظر، ولهذا بلغ عدد السائحين القادمين إلى تونس أضعاف من يقدمون إلى غيرها من البلاد العربية.

ومع كل هذا التوجه الذي يبدو غريب التوجه وبراجماتي الطابع فقد بدأت تونس تستعيد هويتها الإسلامية منذ تولى الرئيس زين العابدين بن علي مقاليد الأمور في ١٩٨٧ خلفاً للرئيس بورقيبة صاحب سياسات التغريب من أجل التقدم، والذي كان حريصاً على المضي في خطوات واسعة من أجل النهضة، وهكذا فإنه تبنى سياسات بدت تغريبية تماماً على الرغم من أنه استخدم المفاهيم والجذور الإسلامية في وصوله إلى السلطة ، وتحقيق ما حقق من زعامة .

وقد بدأت تونس في هذا الاتجاه إلى استعادة هويتها الإسلامية بخطوات متدرجة ولكنها قادرة على أن تكفل لها في النهاية استعادة صورتها الإسلامية وجوهر تدينها الحنيف .



على أن الأهم من هذه الخطوات تمثل في رأيي في عدم المزايدة بها أو استغلالها للتدليل على انتهاج سلوك ديني أو إسلامي، أو المتاجرة بها في مواجهة جماعات الإسلام السياسي، وإنما وجدت قيادة تونس أن الأفضل لها ولشعبها أن تخطو مثل هذه الخطوات في هدوء تام .

ولهذا السبب فلربما تبدو أفكارى في هذا الفصل أفكاراً حرة تتعارض مع الصورة الذهنية المتحققة بالفعل، أو المراد تحقيقها .

ولعل أبرز هذه الخطوات في الاتجاه التونسي إلى استعادة الهوية الإسلامية كانت إعادة جامعة الزيتونة لتأخذ دورها الرائد بين الجامعات الإسلامية، ومن الجدير بالنظر أن هذه الجامعة لا تزال من حيث عدد طلابها أصغر الجامعات التونسية، لكنها في الوقت نفسه أعرق هذه الجامعات، وهي تستند في تاريخها العلمي والفقهى إلى تراث إسلامي ممتد ومتجذر، ولم يكن من السهل اقتلاعه ولا تبديل صورة نموه، ومع هذا فإن مشاعر المسلمين في العالم الإسلامي والعالم الإفريقي بصفة خاصة لا تزال

تتطلع إلى عناية أكبر بهذه الجامعة لتصبح بمثابة منارة من منارات تونس الإفريقية من ناحية، ولتصبح بمثابة منارة لتبادل الفكر الإنساني مع المجتمعات الفرانكفونية من ناحية أخرى.

وفي هذا الاتجاه أيضا تم استحداث مركز للدراسات الإسلامية في مدينة القيروان عاصمة الإسلام الأولى في أفريقيا، كذلك فقد كانت للحكومة الفرنسية خطوات متدرجة في الارتفاع بقيمة الجهاز المشرف على الشؤون الدينية من إدارة إلى إدارة عامة، ثم إلى «كتابة دولة»، ثم إلى وزارة للشؤون الإسلامية، وفي اتجاه آخر تم تعزيز المجلس الإسلامي الأعلى وتوسيع صلاحياته.



وبالإضافة إلى هذه الإصلاحات المؤسسية فقد تنبه نظام التحول الديمقراطي في تونس إلى مجموعة من الإجراءات المهمة المنبئة أو المعلنة عن هوية تونس الإسلامية وتوجهها إلى الارتباط بشقيقاتها، ولهذا السبب ومنذ الشهر الأول لتولى الرئيس زين العابدين بن علي مقاليد الحكم فإنه بدأ في اتخاذ مجموعة من القرارات التي كفلت الإعلان بوضوح عن وجه تونس الحقيقي، وذلك من قبيل بث الأذان للصلوات في الإذاعتين المسموعة والمرئية، ونقل وقائع صلاة الجمعة إذاعيا وتليفزيونيا، والعودة إلى منهج العمل برؤية الهلال لتحديد بداية الشهور العربية مع الاستئناس في الوقت نفسه بالحساب في ضبط أوائل الأشهر والأعياد الإسلامية، كما تقرر إثبات التاريخ الهجري مع التاريخ الميلادي في قرارات الدولة.

وهكذا تحقق للتونسيين المتمسكين بجذورهم قدر كبير من الاطمئنان إلى ارتباط سياسة الحكم [في ظل التحول الديمقراطي] بالهوية الإسلامية، وهكذا أصبح من الممكن التخلي المبكر عن نزعات التطرف، وواد هذه التوجهات في جذورها، والقضاء على فرص توظيفها سياسيا من أجل أهداف قصيرة النظر يندفع إليها بعض المتحمسين عن سوء نية أو حسن نية.

وعلى صعيد العمل اليومي أصبحت المساجد والزوايا والجوامع تجد عناية فائقة على مستوى الصيانة والترميم والتجديد وبناء الجديد، كما شملت العاملين فيها مظلة التأمينات الاجتماعية بعد أن كانوا أقرب إلى المتطوعين غير المرتبطين بالجهاز الحكومي.

وخلاصة القول إن خمسة عشر عاما من التحول (١٩٨٧ - ٢٠٠٢) قد عنيت بالدين ضمن ما عنيت به من أمور تونس والتونسيين في ظل نسج متوازن من العناية بالهوية والجذور، والتفاعل مع العصر وحاجاته، ولم يبق في هذا المجال إلا استعادة مكانة العلم الديني في جامعة الزيتونة والجامعات التونسية، والارتقاء بهما إلى الدرجات التي يحق عندها لكل تونسي ولكل مسلم أن يفخر بالأدوار التي لعبتها الحركة الدينية التونسية في الإصلاح والتجديد على مدى عصور الإسلام المتعاقبة، ولا ننسى في هذا الصدد فضل فقهاء تونس، وعلمائها، وفي مقدمتهم الفقيه العظيم «ابن سحنون»، كما لا ننسى مشاركات علماء تونس في العصر الحديث في إعلاء شأن الإسلام، وقد كان منهم أعضاء بارزون في هيئة كبار العلماء، ومجمع اللغة العربية وغيرهما من المجامع العلمية والفقهية واللغوية، بل إن أحد هؤلاء وهو الشيخ محمد الخضر حسين كان أول شيخ للأزهر يقع عليه اختيار رجال الثورة المصرية، وقد كان له نشاط أهلي ضخم من خلال جمعية الهداية الإسلامية التي ترأسها، بل إن رده المبكر في ١٩٢٥ على كتاب الشيخ على عبد الرازق كان في حد ذاته نموذجا للفقه الحقيقي، والعلم المحيط الذي لا تدرك شطآنه.

أهدت تونس الإسلام في الماضي عددا لا يستهان به من أعلامه، وأقطابه، وأفذاذه، وبقي أن تهديه في المستقبل من هم أهل لهذا الفضل.

نموذج لمشروع للتعاون الطبى بين قطرين إسلاميين (*)

لم يعد تعريف الصحة فى القيم الاجتماعية الدولية هو ذلك التعريف السلبى الذى يعنى انعدام المرض أو العجز، ولكنها أصبحت تعرف على أنها حالة من اكتمال السلامة بدنيا وعقليا واجتماعيا.. وهكذا أصبح هناك اعتراف واضح بدور العوامل البيئية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى مجال الصحة بحيث يمكن إعطاء الاهتمامات المناسبة للقطاعات التى تتولى شئون البيئة والتعليم والوضع الاقتصادى والاجتماعى والتغذية والثقافة ووسائل الإعلام.

ومن البدء أن هذه المجالات تتفاعل هى الأخرى مع الجهود المبذولة فى التعاون الطبى بين المجتمعات العربية.

وسوف نحاول أن نحدد بعض مداخل محددة لآفاق التعاون الطبى الكفيل بتنمية التعاون فى المجالات الأخرى على ثلاثة محاور:

(*) هذا الفصل هو مشروع نموذجى (model) للتعاون مع الأقطار الإسلامية الشقيقة من خلال صناديق المعونة الفنية التابعة لوزارة الخارجية المصرية ، وقد أعدته على هذا النحو منذ أكثر من عشر سنوات ، وتمت الاستعانة - بالفعل - ببعض أفكاره .

□ التعاون فى مجال القوى البشرية .

□التعاون فى مشروعات مشتركة .

□ إنشاء هيئات مشتركة لصياغة التعاون العام .

أولاً: التعاون فى مجال القوى البشرية:

(أ)التدريب:

يعتبر التدريب (المهنى والمتقدم) الميدان الأول للتعاون بين قطرين شقيقين، إذ أنه هو المجال الأقرب إلى تحقيق أقصى قدر من التعاون المثمر والفعال.. وبالإضافة إلى هذا فإنه بمثابة المجال الذى يمكن خوضه بسهولة وبسرعة وبدون كثير من الإعداد أو التجهيز للارتباطات المسبقة والخطط السنوية والخمسية.. إلخ.

وتتوافر فى مصر على سبيل المثال مجالات واسعة للتدريب المهنى للعاملين فى مجال القوى الصحية على أكثر من صعيد يمكن تعداد بعضها على النحو التالى:

□ التدريب فى مجال الرعاية الأولى، حيث حققت مصر نجاحاً متواتراً فى التصدى لحملات التطعيم المتعاقبة ضد كثير من أمراض الطفولة . على سبيل المثال: شلل الأطفال.. والجفاف.. ويشمل هذا التدريب طوائف متعددة من العاملين فى مجالات الخدمة الصحية بدءاً بالأطباء والخدمات المعاونة وحتى العاملين فى تنظيم الحملات الإعلامية على مستوى وسائل الإعلام القومية .

□ التدريب فى مجال رعاية الخصوبة .

□ التدريب على التكنولوجيات الطبية المتقدمة .

□ التدريب على طرق تقديم الرعاية الصحية للأعداد الكبيرة (فى المنشآت التعليمية والصناعية) .

- التدريب على توفير الخدمات المعملية الأولية فى الأماكن النائية.
- التدريب على تجهيز المنشآت الصحية الأولية وتحويلها إلى مراكز للرعاية الصحية المتقدمة.
- ويمكن لبرامج التدريب أن تتم من خلال:
- إدارة تنمية القوى البشرية فى وزارة الصحة.
- المجلس القومى للسكان وهو يتبع رئاسة مجلس الوزراء.
- مركز الإعلام والتعليم والاتصال. وهو يتبع الهيئة العامة للاستعلامات.
- الجامعات المصرية.
- إدارة الخدمات الطبية بالقوات المسلحة - هيئة الإمداد والتموين.
- الأكاديمية الطبية العسكرية - الأمانة العامة لوزارة الدفاع.
- إدارة المعامل المركزية - وزارة الصحة.

(ب) تبادل الخبرات:

يمثل هذا المجال الفرصة الأكثر ملائمة للقاء التنفيذيين فى أى قطرين إسلاميين شقيقين [وبخاصة من مستوى الإدارات العليا] من أجل توفير الإجابات الميدانية على الأسئلة الباحثة عن الخبرة العملية فى تجارب حقيقية أخذت مكانها على أرض الواقع مع بعض اختلاف فى الظروف.

ويمكن للتنفيذيين المصريين أن يفيدوا من خبرات القطر الشقيق فى دراسة علاقة الطب باقتصاديات الحرب وما بعد الحرب، على سبيل المثال، وفى التطور الحديث للطب المتخصص فى مشكلة بيئية، أو فى مجالات أخرى، وفى ذات الوقت يمكن للتنفيذيين الأشقاء تبادل الخبرات مع مصر فيما يتعلق بالمجالات الآتية:

- تبادل الخبرات فى بناء وتنظيم التعليم العالى فى كليات التمريض ومدى ارتباط هذا التعليم بالتعليم الطبى عموما والتعليم العام كذلك .
- تبادل الخبرات فى تجربة التوسع فى الدراسات العليا فى الفروع الطبية المختلفة، وربط مفهوم التخصص فى الطب بالشهادات الجامعية والبحث العلمى .
- تبادل الخبرات فى اختيار القناة المثلى للدراسات العليا (سياسة الدبلوم الواحد- سياسة الدبلومين - الماجستير) .
- تبادل الخبرات فى برامج التعليم الطبى المستمر وفعاليتها .
- تبادل الخبرات فى بناء أنظمة التأمين الصحى وتطويرها وتوسيع مظلقتها .
- تبادل الخبرات فى إنشاء وحدات الرعاية المتكاملة فى الحضر (المراكز الصحية الحضرية) ومدى فعاليتها .
- تبادل الخبرات فى مجال التأهيل العلمى للقائمين بإدارة المستشفيات .
- تبادل الخبرات فى مجال النشر العلمى .
- ويمكن لبرامج تبادل الخبرات أن تتم من خلال:
- المجلس الأعلى للجامعات - لجنة قطاع الدراسات الطبية .
- الجامعات المصرية وبخاصة الجامعات التى تكتمل فيها مجموعة كليات الطب وطب الأسنان والصيدلة والتمريض والعلاج الطبيعى .
- مركز التعليم الطبى بكلية طب قصر العينى .
- مركز التعليم الطبى المستمر - وزارة الصحة .
- إدارة التراخيص بوزارة الصحة .
- الهيئة العامة للتأمين الصحى .
- وكالة الوزارة للرعاية الصحية الأولية - وزارة الصحة .

(ج) التعليم والتعليم العالي والدراسات العليا،

لاشك أن إتاحة الفرصة للدراسة لعدد، ولو محدود من طلاب كل قطر إسلامي في القطر الآخر (ولو على سبيل الرمز) هو سبيل ممتاز لإقامة علائق ووشائج ممتازة ومتصلة، عبر الأجيال، بين البيئتين الطبيئتين في كلا القطرين، حتى ولو كانت الدراسة في مؤسسات تعليمية متناظرة تماما أو تبدو كذلك.

ومع هذا تنفرد مصر بوجود معاهد متميزة لا بد من ارتيادها لأعداد غير قليلة من المشتغلين في الحقل الطبى فى الأقطار الشقيقة، ويمكن أن يتم هذا من خلال:

- المعهد العالى للصحة العامة - جامعة الإسكندرية.
- معهد الأورام القومى - جامعة القاهرة.
- المعهد العالى للعلاج الطبيعى - جامعة القاهرة
- قسم الهندسة الطبية - هندسة القاهرة.
- معهد الطب العسكرى - الأكاديمية الطبية العسكرية (والمعاهد المناظرة).
- قسم البيئـة - هندسة الزقازيق.
- دبلوم إدارة المستشفيات - جامعة القاهرة - كلية التجارة.
- دبلوم إدارة المستشفيات - أكاديمية السادات للعلوم الإدارية.
- معهد البصريات - وزارة التعليم العالى.

وهذا بالطبع بالإضافة إلى مؤسسات التعليم الطبى التقليديـة فى كليات الطب وطب الأسنان ومعاهد التمريض.. على مستوى الدراسات العليا والدراسات الجامعية.

ثانياً: التعاون في مشروعات مشتركة:

يمكن القول بأن التعاون الطبي في مشروعات مشتركة يرتبط بصفة أساسية بمجال عمل المؤسسات الاقتصادية التي هي من قبيل الشركة القابضة المشتركة بين القطرين الشقيقتين، بيد أن هناك عدداً من المجالات الطبية التي لا بد للتنمية فيها لكي تنطلق من بدايات أقوى في مجال الموارد الصحية، وهناك عدد آخر من مشروعات تستدعي دراسات الجدوى فيها وجود أسواق أوسع في (مجال المستهدفين بالخدمة).

ومن خلال هذين المحورين على سبيل المثال يمكن إقامة مشروعات مشتركة بين البلدين في المجالات الآتية:

□ مصانع الأدوية:

يتزايد الاستهلاك على الدواء مع زيادة عدد السكان من ناحية، وزيادة الرعاية الصحية من ناحية أخرى، ونظراً للاعتماد على الاستيراد يمثل تصنيع الدواء مشكلة ملحة وضرورة أولية، ويمكن القول بأن أهم عقبتين أمام مصانع الدواء الجديدة هما: التمويل الأولي، وضمان الأسواق. ومع قيام مصانع مشتركة للدواء بين الأقطار الإسلامية يمكن حل معضلات هذه المشكلة تماماً وفعلاً عن تحقيق:

□ أقصى قدر ممكن من الاستقلال القومي في صناعة الدواء والخدمات الطبية.

□ أقصى ربحية ممكنة.

□ أقصى توفير للعملاء الحرة.

□ تشغيل اليد العاملة.

□ توفير فرص البحث العلمي، وإعداد الكوادر في التكنولوجيات المتقدمة.

□ تجهيزات المستشفيات:

وينطبق عليها نفس ما أشرنا إليه في البند السابق مع مراعاة أهمية الظروف التالية

كعوامل إيجابية مساعدة:

١ - تميز العادات والتقاليد والمناخ فى القطرين عنها فى معظم البلاد القائمة بالتصنيع للتجهيزات الطبية .

٢ - توفير نوعيات مناسبة اقتصاديا .

٣ - إعادة صيانة التجهيزات القديمة بما يحقق عائد اقتصادى .

٤ - تحقيق السمة الوطنية فى المكونات العامة .

□ المصل واللقاحات:

ولا تزال مصر إلى اليوم المصدر الأول للدول الأفريقية فى هذا المجال .

□ وسائل تنظيم الأسرة:

□ الأجهزة التعويضية والتكميلية وخدمات المعاقين:

هذا ويمكن تنمية وتدعيم التعاون فى المجالات الخمسة السابقة من خلال:

(١) الجمعيات الأهلية العاملة فى هذا المجال: جمعية تحسين الصحة - مؤسسة يوم المستشفيات .. إلخ .

(٢) الهلال الأحمر المصرى .

(٣) مؤسسة الأدوية، وهيئة المعمل واللقاح .

(٤) مركز التأهيل والمصانع الملحقة به بالعجوزة (إدارة الخدمات الطبية للقوات المسلحة) .

(٥) مؤسسة الوفاء والأمل .

ثالثاً: إنشاء هيئات مشتركة لصياغة وتفعيل التعاون الدائم:

وتتمثل أهمية هذه الهيئات (أو الأمانات الفنية الدائمة) في أنها تجسد روح التعاون وتضمن استمراريته كما تحقق له التوصل البيروقراطي، ولا بد من مراعاة بعض العوامل الضامنة لاستمرار هذه الهيئات مثل:

□ ذاتية التمويل إلى أقصى حد ممكن.

□ وضوح الغاية وعدم ارتباطها بالشعارات النظرية.

□ دورية النشاط واللقاءات.

□ حيوية الهدف أو مجموعة الأهداف.

□ استقلال الفكرة عن الارتباط بأية متغيرات سياسية أو سلبية.

وفي هذا الصدد يمكن إنشاء عدد من المؤسسات العلمية التي لا تزال الأقطار الإسلامية في حاجة إليهما، وترتفع قيمة هذه المؤسسات إذا ما ارتبطت بحاجة ملحة لم تفلح الجهود الوطنية في تحقيقها على نحو أمثل بالإمكانات المنفردة، وعلى سبيل المثال يمكن إنشاء هيئات أو مؤسسات تعمل في المجالات الآتية:

□ معهد للدراسات المتقدمة في مجال الصحة:

على نمط المعاهد الدولية التي تتولى تنظيم ندوات وحلقات بحث وورش عمل مصغرة للبحث في مشكلات المستقبل، تدعو إليها الأساتذة العالميين وتتولى وضع تقارير عملية ودقيقة، وصياغة تصورات خاصة ووسائل تنفيذها.

□ برامج التدريب:

بحيث تتولى الأمانة الموجودة في أحد القطرية تعريب البحوث المقدمة للمؤتمرات والدوريات والمجلات، وتتولى الأمانة الموجودة في القطر الآخر تعريب الكتب والمراجع .. وهكذا بالتبادل.

□ برامج البليوجرافيا الطبية العربية:

وذلك لإعداد قاعدة البيانات الطبية العربية ، وقد أسهم كاتب هذه السطور في هذا المجال في إصدار البليوجرافيا القومية للطب المصرى عن الأكاديمية المصرية العسكرية، ولا يزال المجال خصباً لإعداد ونشر كثير من هذه البليوجرافيات في كافة التخصصات الطبية، وهي كفيلة بأن تطلع اطبائنا في الأوطان المختلفة على الجهود التي بذلها أقرانهم في الموضوع نفسه بدلا من تكرار الجهود دون جدوى.

وفي هذا المجال يجدر بي أن أشير إلى أن البليوجرافيات العالمية لا تعنى بمثل منطقيا وبالبحوث التي نشر فيها وهكذا نصبح نحن أولى الناس بعملنا وفهرسته وتكشيفه وإتاحته للأشقاء في الأوطان الإسلامية.

□ برامج النشر العلمى المشترك:

من أجل إصدار دورية عربية شهرية تصدر بانتظام ومع أول كل شهر وتوزع في جميع أنحاء العالم.

□ مؤسسة تعليمية حرة غير مقيدة المكان (جامعة مفتوحة)؛

تتولى تنظيم برامج التعليم الطبي المستمر المشار إليها من قبل.

□ اتحاد لمؤسسات التعليم الطبي؛

يتولى تنسيق التعاون ورسم الآفاق الأرحب للتعاون الدائم والدورى بين هذه المؤسسات، وتبادل الخبرات التعليمية والطبية.

□ مؤسسة مشتركة للطب الاستراتيجي؛

تحقيق التكامل المنشود فى مجال الخدمات الطبية العسكرية تحسبا لأوقات الأزمات.

كتب للمؤلف

□ أعمال موسوعية

- القاموس الطبي نوبل [بالاشتراك مع د. محمد عبد اللطيف] - ١٩٩٨
- الببليوجرافيا القومية للطب المصري (٨ أجزاء) - ١٩٨٩ - ١٩٩١
- دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبي الحديث - ١٩٨٧
- مجلة الثقافة [١٩٣٩ - ١٩٥٢] : تعريف وفهرسة وتوثيق - ١٩٩٣
- التشكيلات الوزارية في عهد الثورة - ١٩٨٦
- الوزراء (طبعتان) - ١٩٩٥ ، ١٩٩٧ ، ٢٠٠١
- المحافظون (طبعتان) - ١٩٩٥
- البيان الوزاري في مصر [١٨٧٨ - ١٩٩٦] (طبعتان) - ١٩٩٦ ، ٢٠٠٠
- النخبة المصرية الحاكمة [١٩٥٢ - ٢٠٠٠] - ٢٠٠١
- قادة الشرطة في السياسة المصرية [١٩٥٢ - ٢٠٠٢] - ٢٠٠٣

□ في التراجم

- الدكتور محمد كامل حسين (الحائز علي جائزة مجمع اللغة العربية) ١٩٧٨
- مشرفة بين الذرة والذروة (الحائز علي جائزة الدولة التشجيعية) (طبعتان) ١٩٨٠
- الدكتور أحمد زكي - ١٩٨٤
- مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل - ١٩٨٤
- سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض - ١٩٨٤
- الدكتور علي باشا ابراهيم - ١٩٨٥
- الدكتور سليمان عزمي باشا - ١٩٨٦
- الدكتور نجيب محفوظ باشا - ١٩٨٦
- توفيق الحكيم من العدالة إلي التعادلية - ١٩٨٨
- اسماعيل صدقي باشا - ١٩٩٨
- سيد مرعي - ١٩٩٩
- يرحمهم الله - ١٩٨٤
- مصريون معاصرون - ١٩٩٩

□ دراسات نقدية لكتب المذكرات

- فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين - ١٩٩٧
- مذكرات وزراء الثورة - ١٩٩٤
- مذكرات المرأة المصرية - ١٩٩٥

- نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار (طبعتان) - ١٩٩٦ ، ٢٠٠٣
- محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء - ١٩٩٩
- الأمن القومي لمصر: مذكرات قادة المخابرات والمباحث - ١٩٩٩
- من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية - ١٩٩٩
- الطريق إلى النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ - ٢٠٠٠
- النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣ - ٢٠٠٠
- في أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧ - ١٩٧٢) - ٢٠٠٠
- علي مشارف الثورة : مذكرات وزراء الملكية (١٩٤٩ - ١٩٥٢) - ٢٠٠١
- في خدمة السلطة : مذكرات الصحفيين - ٢٠٠١
- تكوين العقل العربي : مذكرات المفكرين والتربويين - ٢٠٠٣

□ دراسات سياسية

- الفلسطينيون ينتصرون أخيراً - ٢٠٠٣
- المسلمون والأمريكان والعولمة - ٢٠٠٣
- مستقبل الجامعة المصرية - ٢٠٠٠
- القاهرة تبحث عن مستقبلها - ٢٠٠٠
- مستقبلنا في مصر: دراسات في الاعلام والبيئة والتنمية (طبعتان) - ١٩٨٥
- الصحة والطب والعلاج في مصر - ١٩٨٧
- آراء حرة في التربية والتعليم - ٢٠٠١
- التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار - ٢٠٠١

□ دراسات

- كلمات القرآن التي لانستعملها (طبعتان) - ١٩٨٤
- أدباء التنوير والتاريخ الإسلامي (طبعتان) - ١٩٩٠
- من بين سطور حياتنا الأدبية - ١٩٨٤

□ وجدانيات

- أوراق القلب [رسائل وجدانية] - ١٩٩٤
- أوهام الحب [دراسة في عواطف الأنثى] - ١٩٩٩

□ من أدب الرحلات

- رحلات شاب مسلم (طبعتان) - ١٩٨٩
- شمس الأصيل في أمريكا - ١٩٩٤

□ في طب القلب

- أمراض القلب الخلقية الصمامية - ٢٠٠١
- أمراض القلب الخلقية غير الصمامية - ٢٠٠١

المحتويات

- الإهداء ٥
- هذا الكتاب ٧
- الباب الأول: أمريكا والإسلام ١٣
- هل تعتقد أمريكا الإسلام؟ ١٥
- الدعوة إلى الإسلام أحدى من الدفاع عنه ٢٠
- لماذا فشلت أمريكا فى جذب أفئدة المصريين؟ ٢٥
- رسائل الجمول فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ٣٢
- الدين وانتخابات الرئاسة الأمريكية ٣٦
- الباب الثانى : الإسلام فى مواجهة العولمة ٤١
- التقاليد الإسلامية فى عصر العولمة ٤٣
- العولمة فى الطب والصحة ٤٨
- هل النمو الإسلامى فى ماليزيا هو المستهدف؟ ٥٨
- فرنسا ومحنة العنصرية الجديدة ٦٢

الباب الثالث : مكانة الإسلام في التحالفات الجديدة ٦٩

□ من الحرب الباردة إلى الحرب المتجمدة ٧١

□ هل أن أوان التوجه المكثف نحو الصين؟ ٨١

□ حوار مع بريماكوف في تونس ٨٦

□ روسيا بين الصحة والمرض ٩١

□ عالم عربي جديد ٩٨

الباب الرابع : المسلمون في مائدة العولمة ١٠٣

□ القدس والدبلوماسية الإسلامية ١٠٥

□ العراق في الفكر الأمريكي ١١٠

□ جنوب السودان إلى أين؟ ١١٨

□ السودان والمساعدات الأمريكية ١٢٢

الباب الخامس : العلاقات الإسلامية في عصر العولمة ١٢٧

□ الدين والحرية في إيران ١٢٩

□ العرب والأتراك والأكراد ١٣٣

□ تونس تستعيد هويتها الإسلامية ١٣٨

□ نموذج مشروع للتعاون الطبى بين قطرين إسلاميين ١٤٢

كتب للمؤلف ١٥٣

٢٠٠٣ / ٢٤٧٨	رقم الإيداع
977-5684-66-8-ISBN	الترقيم الدولي

تم الاحاطة بالرفع بواسطة

مكتبة عمرك

ask2pdf.blogspot.com